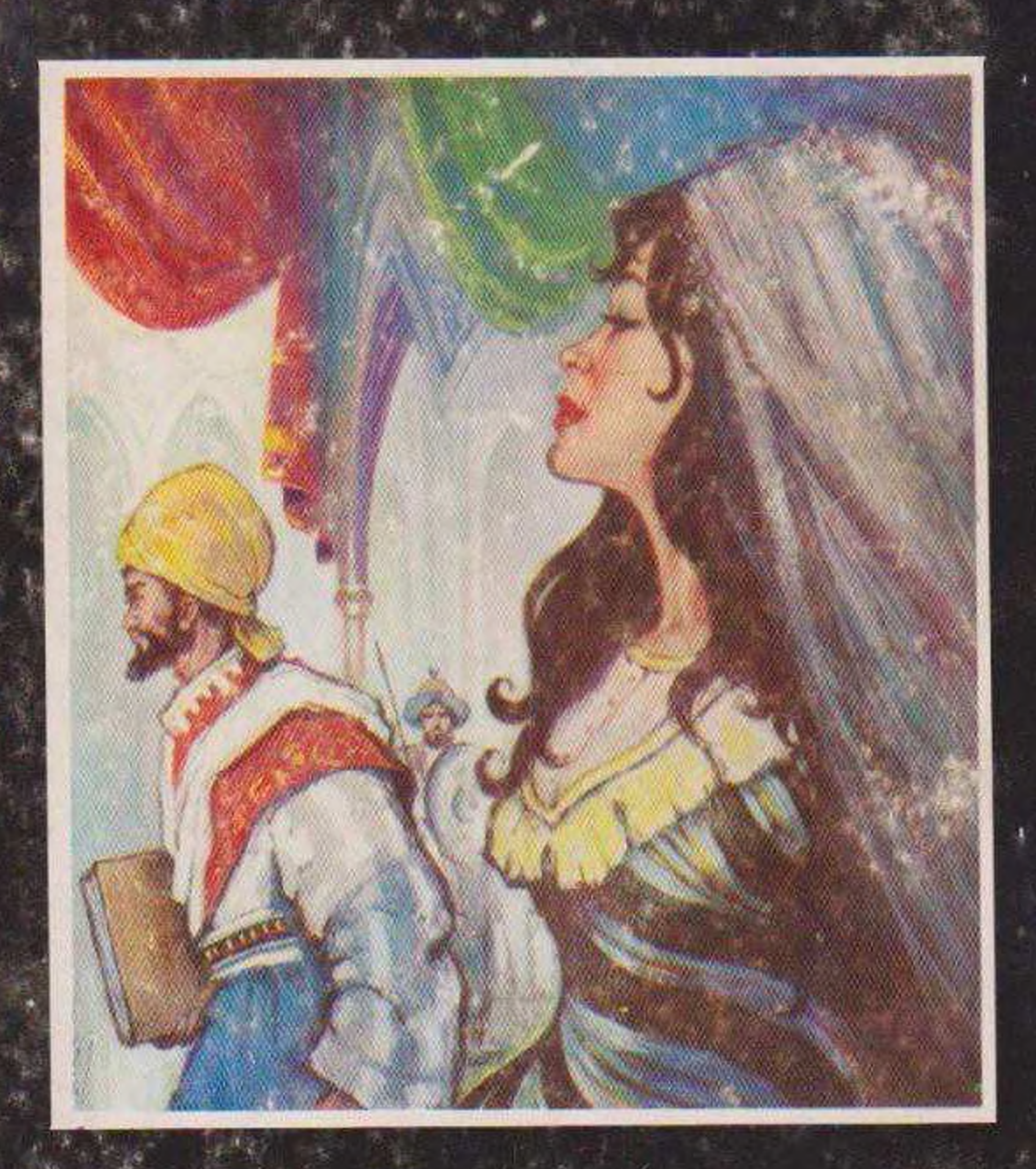
عمر بن عبد العزيز



عبد الحميد جوده السحار

عمر بن عبد العزيز

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى

بسم الله الرحمن الرحيم

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمؤمنين » .

(قرآن كريم)

ان العمل والعلم قريبان ، فكن عالما بالله عاملا له ، فان اقواما علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالا .

(عمر بن عبد العزيز)

- ١ -

كان الظلام يخيم على المدينة ، ولم يكن فى السماء نجم يتلألأ ؛ ولكن الدور كانت كخلايا النحل : الرجال والنساء والولدان يرتلون القرآن فى هجعة الليل وقد أضاءت قلوبهم بأنوار اليقين · ومر الوقت ونام الكون ولم ينم بلال الا غرارا ؛ فقد كان يرقب الفجر · وخشى أن يخطفه النوم فقام يتوضأ ، ثم سار فى مسجد الرسول الى الدرج الذى يرقى فيه الى السطح فراح يعرج فيه وهو يفكر فى الأيام التى تقضت قبل اسلامه · انه كان مولدا من مولدى بنى جمح شب لا يعرف من أمر الدنيا الا أن سيده ان غضب عليه جلده ، وان رضى عليه أعطاه من فضل زاده ؛ وعاش بلا أمل يخرج فى قوافل التجارة كما تخرج السائمة ، ليس له من أمرها الا شبع بطنه والعرق الذى يتصبب منه اذا ما حمل الأثقال على ظهره ليرفعها الى ظهور الابل أو ليحطها عنها ، وما كان له أن يشكو من التعب فما كان للدواب حق الشكوى أو التبرم من حياتها ·

وسار على السطح الذى يؤذن من فوقه فمد عينيه

الى الأفق الشرقى : انه الفجر الكاذب وما حان أوان الأذان بعد ، فعادت أفكار الماضى تنثال على رأسه . رأى أبا بكر الصديق وهو يأتى اليه فى مكة فى جوف الليل ليقول له ان محمد بن عبد الله يدعو الى عبادة الله . وراحت كلمات أبى بكر ترن فى أعماقه . انه يدعوه الى ذلك الدين الذى يثبت الربوبية لرب السماوات والأرض وينفيها عن كل الأصنام والبشر .

أكدت له كلمات أبى بكر أنه ليس عبدا لأحد من بنى جمح ، وأنه حر وليس لأحد سلطان عليه . فهو وسيده سواء أمام رب الناس اله الناس ؛ بل قد يصبح عند الله أفضل من سيده ان أحسن العمل .

كانت حريته لا تستند الى شىء ، وكانت ارادته تخبو كلما هفت روحه الى الحرية ؛ فالموت الذى سينهى حياته بالعدم كان يقضى على كل ارادة . ولكن الدين الجديد الذى يدعو اليه أبو القاسم لم يجعل الموت نهاية ، بل هو بداية لحياة أخرى خالدة توفى كل نفس فيها حسابها . فلم تعد الحياة عبثا ولا حملا ثقيلا بل دار ممر الى دار مقر ؛ والعاقل من أخذ من ممره لمقره لينال الفوز الأكبر .

لم يعد يتأرجح بين الوجود والعدم ، وتملكه نزوع وجدانى ينشد الحرية المطلقة ؛ حرية العقل وحرية الاختيار والارادة . فكلمات أبى بكر قد رفعت عن عين بصيرته الغشاوة فشعرت ذاته بوجودها وحريتها ، وامتلأ قلبه بنور أضاء ذاته العميقة فاذا به يكاد يقرع أبواب ملكوت السماء .

انه عرف ما يريد بعد تدبر وتفكير فاعتنق الاسلام دون اكراه ، وحمل الأمانة وهو سعيد ، فقد عزم على أن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل وأن يعانى الحياة فى صبر ، بعد أن بدد ظلمات وجوده واهتدى الى اليقين المبين ·

وتذكر يوم أنقذه الصديق من أيدى معذبيه وأخذه فأعتقه ، فتحرر الجسد بعد أن تحررت الروح ؛ فكان سعيدا بحرية روحه وجسده ، وبالطمأنينة التى شاعت فى وجدانه ، وبالتجانس الذى بات يحسه فى نسيج الكون بعد أن كانت الفوضى سمته والتنافر صفته ·

ان الصراع مستمر وسمو النفس فوق الأهواء يشتد عوده ، والنزوات تتحطم عند حدود الله ، والاحساسات الدينية السامية تزداد ارهافا · وذلت عبودية المادة بعد أن أغلقت الأفئدة المؤمنة الأبواب دونها ، ورفعت الأقنعة عن الحرية الراشدة · ووجدت على ظهر الأرض الحياة الروحية الحقة القادرة على طرق أبواب السماء ؛ فكان الانسان فى أروع صورة وأحسن تكوين ·

وبدأت طلائع الفجر تزحف من الأفق الشرقى فراح صوت بلال يدعو الناس الى الصلاة ، الى استفتاح يومهم بلقاء الله لتطهير القلوب وتطبيب الروح واستدرار البركات · فما أروع أن يبدأ اليوم باسم الله وذكر الله ؛ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ·

وقام المؤمنون يتوضئون وكل خلجة من خلجات نفوسهم تتجه الى الله وتسبح بحمده ، فهم يعيشون

بالله وفى الله · غخفقات قلوبهم شكر ، وومضات أفكارهم ذكر · ثم خرجوا الى المسجد تتحرك شفاههم ببعض ما في صدورهم من كنوز العلم ·

واتجهت الأعين الى الباب الذى سيخرج منه رسول الله صلى الله عليه وسلم · وجلس عمر بن الخطاب خلف محراب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وشرد ذهنه ، فتذكر ذلك اليوم الذى قال له فيه صلى الله عليه وسلم :

ـ ايها يابن الخطاب ! والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط الا سلك فجا غير فجك ·

فطأطأ عمر رأسه تواضعا لله حتى لا يأخذه العجب بنفسه ·

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أطيب رائحة من المسك ، فقام أقرب الناس منه فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بهما وجوههم · وتقدم عليه السلام الى المحراب وقد تواضع لله ، ووقف يصلى وقد اصطف خلفه أصحابه قد ملئت أفئدتهم تقوى وازدادوا علما فازدادوا من ربهم قربا · تجنبوا محارم الله وأدوا فرائض الله وعملوا بالصالحات من الأعمال ، ووقر فى وجدانهم أن الأجل دون الأمل ، فبادروا الأجل بالعمل ليزدادوا فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة · وينالوا فى آجل العقبى بصالح أعمالهم من ربهم القرب والعز والفوز الأكبر ·

كانوا رعاة أو تجارا ، وكان من المفروغ منه أن يمروا كأجدادهم فى قافلة الحياة دون أن تشعر بهم

البشرية ؛ ولكن القرآن العظيم وأسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسنة ستجعل منهم أعظم حكام وأعدل قضاة وأشهر قواد ليدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وأطهرها ؛ فقد أصبحوا على يقين من أنهم لم يخلقوا عبثا ولن يتركوا سدى ، وان الله سائلهم عما هم فيه وعما عملوا به ، فقد قال لهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ومعلمهم الأكبر : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل به ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسده فيما أبلاه · أرهفت حواسهم فلم يكن شيء أحب اليهم من الاصلاح ولا أبغض اليهم من الفساد ، فكانوا يحاسبون أنفسهم قبل أن تنكشف أقنعتهم فيما بينهم وبين الله فى مجمع الأشهاد ، فجعل الله لهم نورا يمشون به فى الناس ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ·

كانوا يعملون بالحق ليوم لا يقضى فيه الا بالحق ، فكان حكامهم حلماء ، وأموالهم فى أيدى السمحاء ، يأمرون بتقوى الله ، ويخلصون العمل لله ، ويخلطون الرغبة بالرهبة · يأمرون بما أمر الله به ، وينهون عما نهى الله عنه · يعلمون أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأن فى العزلة راحة من خلطاء السوء · الحياة عليهم نعمة ، والموت لهم كرامة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ·

وقضيت الصلاة فالتف المسلمون حول النبى صلى الله عليه وسلم ؛ كان المسجد جامعتهم ، وكان صلوات

الله وسلامه عليه معلمهم الأكبر الذى لا ينضب علمه ، ولا جرم فعلمه من لدن العليم الخبير • ودار الحوار بين الرسول الكريم وصحابته فقال حذيفة :

ـ هل بعد هذا الخير من شر ؟

فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ نعم •

ـ وهل بعد ذلك الشر من خير ؟

ـ نعم وفيه دخن •

ـ ودما دخنه ؟

ـ قوم يستتنون بغير سنتى ويهتدون بغير هديى •

واستمر الحديث وقال رسول الله صــلى الله عليه عليه وسلم :

ـ ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها شبابها •

ولم يدر بخلد عمر بن الخطاب فى ذلك الوقت ، أن تاج بنى أمية ذلك الذى سيبعثه الله لهـذه الأمة على رأس المائة سنة القادمة من نسله •

ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى الناس وقالوا :

ـ والله لوددنا أنا متنـــا قبـــله ؛ انا نخشى أن نفتن بعده •

قال قائل :

ـ ولكنى والله ما أحب أنى مت قبله ، حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا •

واســتقرت الخلافة لأبى بكر الصديق ، وذاع خبر

موت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبائل القريبة من المدينـــة فجاء رجال منهم وكلمـــوا أبا بكر فى أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة · فأبى أبو بكر وقال :

ـ والله لو منعونى عناقا « عنزا » كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعه ·

وكانت حـــروب الردة ، وكان الشر الذى أعقــب الخير ؛ وتحقق ما أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبات الناس يرقبون الخير الذى يأتى بعد ذلك الشر ·

وانقضت أيام أول الخلفاء الراشـــدين بمـــوت الصديق ، وكانت امتدادا لعصر النبى صــلوات الله وسلامه عليه لم يبدل ولم يغير ، كان متبعـــا ولم يكن مبتدعا ، وكان صاحبه فى الحياة والممات · وقام من بعـــده عمر بن الخطاب يفتح الشـــام والعراق ومصر فساس أخلاط هـــذه الأمم بالحكمة والعـــدل ، وأحب للناس ما يحب لنفسه وكره لهم ما يكره لها ، فاجتمعت له الحكمة كلها · وجعله الله حجة على من بعـــده من الولاة الى يوم القيامة ، فسبق سبقا بعيدا ، وأتعب من بعده اتعابا شديدا ·

عدل فأمن فنام تحت شجرة فى المدينة ، فاذا به يرى رؤيا أثلجت صدره فقام من نومه يقول فى عجب :

ـ ان من ولدى رجلا بوجهه شجان يلى فيملأ الأرض عدلا ·

وذاعت مقالة عمر فقال عبد الله بن عمر :

ـ ليت شعرى من هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلا ؟

وسار عبد الله بن عمر والى جواره أخوه عاصم الى مسجد الرسول ليصلى حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عبد الله يقتفى أثر الرسـول فى حياته يتأسى به ، يفعل مثلما يفعل صلى الله عليه وسلم، ويصلى أينما صلى ٠

وخرج أمير المؤمنين فى الليل يتعسس ؛ انه يطوف بالأرامـل والمرضى والفقـراء والمسـاكين ٠ وانصرم الوقت حتى كاد الخيط الأبيض يظهر فى الأفق الشرقى ، فتأهب عمر لينطلق الى المسجد واذا بحوار بين اثنتين يقتحم سمعه ٠

قالت احداهن :

ـ يا بنية امذقى اللبن بالماء ٠

وتسمر الرجل فى مكانه وقد أرهف السمع ٠ ان أما تحرض ابنتها على أن تمزج اللبن بالماء ، تدفعها الى الغش ٠ وسرعان ما جاء صوت البنت يقول :

ـ كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق ؟

ـ ان النـــاس يمذقون فامذقى ؛ فما يدرى أمير المؤمنين بنا ان مذقنا ولا يرانا ٠

ـ يا أماه ، ان كان أمير المؤمـنين لا يرانا ، فرب أمير المؤمنين يرانا ٠

وتهللت أسارير عمر وانشرح صـدره ٠ انه سمع قولا يشع منه اليقين وينبض بخشية الله ويكشف عن نفس مطمئنة ترى بنور الله ؛ فوسع من خطوه والحوار

الذى دار بين الأم وابنتها فى حى بنى هلال يستولى على تفكيره ·

وصلى بالناس الفجر ، ثم وقع بصره على ابنيه عبد الله وعاصم فنادى عاصما وقص عليه ما سمع فى ليلته ، وطلب منه أن يذهب الى تلك الدار ليأتيه بخبر أهلها · فانطلق عاصم يسأل ويتقصى ، وسرعان ما عاد الى أمير المؤمنين يخبره أن الحوار كان بين أم وابنتها وأن البنت لم تتزوج بعد ·

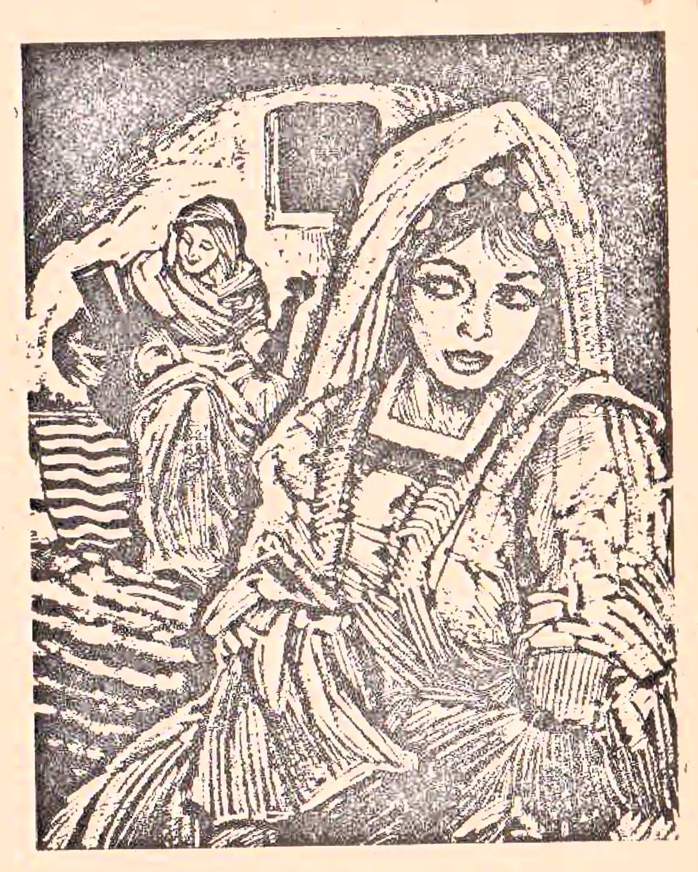
لم تتزوج بعد ؟ انها درة ليس لها الا عاصم ، فهى صالحة وعاصم صالح ابن صالح · ولما كان الطيبون للطيبات فلن تكون ثمرة مثل ذلك الزواج الا طيبا · فقال عمر :

ـ اذهب يا عاصم فتزوجها فما أراها الا مباركة ، ولعلها تلد رجلا يسود العرب ·

كان عمر يذكر تلك الرؤيا التى رآها : سيكون من ولده رجل يملأ الدنيا عدلا ، وان مثل هذه الجارية لخير من ينجب مثل ذلك الرجل ·

وتزوجها عاصم وكان ثمرة ذلك الزواج أنثى أسموها ليلى وكنوها أم عاصم · وجاء عبد الله بن عمر وحمل ابنة أخيه بين يديه وراح يقبلها ، ولو نفذت بصيرته الى ما وراء الغيب لعلم أن ليلى هى أم ذلك الرجل الذى قال عنه يوما :

ـ ليت شعرى من هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة ، يملأ الدنيا عدلا ؟



ان كان أمير المؤمنين لا يرانا ، فان رب أمير المؤمنين يرانا

- ٢ -

راحت ليلى تنمو مع الأيام والأحداث الجسام تترادف . قتل أبو لؤلؤة المجوسى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ، وبايع الناس عثمان بن عفان ليكون ثالث الخلفاء الراشدين . واستعان عثمان بمروان بن الحكم وكان لمروان ولدان: عبد الملك وعبد العزيز . فشب عبد العزيز فى المدينة يؤم مسجد الرسول يلقى السمع الى كبار الصحابة ، فبهرته شخصية عبد الله بن عمر فكان يرقب الرجل فى اعجاب .

وكان عبد الله زاهدا يتصدق بكل ما يأخذه من بيت المال ، وكان يتصدق بالسكر فلما سئل عن ذلك قال :

- ان الله سبحانه وتعالى يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وأنا أحب السكر .

وراح اعجاب عبد العزيز بن مروان بعبد الله بن عمر ينمو مع الأيام . وقامت الفتنة الكبرى ، لما ولى عثمان بن عفان بنى أمية على الأمصار وثار الناس وحاصروا عثمان فى داره وقالوا :

ـ انما أردنا منه مروان .

كان مروان بن الحكم هو صاحب الكلمة المسموعة فى خلافة عثمان ، وكان الثائرون يطلبون رأسه . وانتهت الثورة بقتل عثمان ثالث الخلفاء الراشدين ومبايعة على بن أبى طالب بالخلافة . وقامت الحروب بين المسلمين : معاوية بن أبى سفيان فى الشام يطالب بدم عثمان ويتهم عليا بالمشاركة فى قتل الخليفة ، وكان معاوية داهية يعمل على نقل الخلافة الى الأمويين ، فاستغل الناس لتحقيق مآربه .

وقتل الامام وتولى ابنه حسن الخلافة حيث بايعه أهل الكوفة ، وما انقضى على ذلك ستة أشهر حتى تم الصلح بين الحسن ومعاوية ، وانتقلت الخلافة الى الشام .

وانقضى على موت عمر بن الخطاب سنون طويلة ، ولكن قوله « ان من ولدى رجلا بوجهه شجان يلى فيملأ الأرض عدلا » ، كان ينتقل مع الأجيال . وقد وقر ذلك القول فى ضمير عبد العزيز بن مروان ، فتمنى لو يكون له نصيب فى تحقيق هذه النبوءة .

وبلغ عبد العزيز سن الزواج فأخبر بنى أمية أنه يريد أن يتزوج ليلى بنت عاصم بن عمر ، فاذا بالفزع ينتاب بنى أمية ؛ كانوا يذكرون شدة عمر وعدله . وكانوا يعرفون أن العرق دساس ، فخافوا أن تأتى حفيدة الفاروق برجل منهم يشب على خصال جده ، فيحرمهم مما بلغوه من ترف على حساب المسلمين

وهضم حقوقهم ، فأخذوا يحاولون أن يثنوا عبد العزيز عن عزمه . ولكن عبد العزيز أصر على رأيه اعجابا بالفاروق ، وبابنه عبد الله .

وتزوج عبد العزيز بن مروان ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وحملها الى الشام ليعيشا فى بحبوحة من العيش كما يعيش الأمويون حكام الدولة الاسلامية المترامية الأطراف .

وهلك معاوية وبايع الناس يزيد بن معاوية بالخلافة ، فلم يعد الأمر شورى بين المسلمين بل أصبح ملكا يتوارثه الأبناء عن الآباء . ولم يرض الحسين بن على عن ذلك فخرج من المدينة الى الكوفة ليجمع الناس لمحاربة يزيد بن معاوية ، ليعود الأمر شورى كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة .

وفى كربلاء قتل الحسين بن على ، وفى هذا العام وضعت ليلى بنت عاصم ذكرا فى قصر من قصور الشام (١) ، وقد فرح به عبد العزيز فرحا شديدا ، ولما كان من أشد المعجبين بعمر بن الخطاب فقد أسمى وليده عمر ، عمر بن عبد العزيز ، فمن يدرى فقد تتحقق فيه نبوءة جده الفاروق ويملأ الأرض عدلا ؟

---

(١) اختلف فى مولده فقد قيل ولد فى المدينة ، وقيل ولد بمصر بحلوان ، فهو مصرى المولد .

- ٣ -

استخلف معاوية بن يزيد بن معاوية بعهد من أبيه ، وكان شابا صالحا تقيا ورعا ولكنه كان يقاسى من وطأة المرض ، فلم يخرج الى الناس ولم يصل بهم ، وراح يعانى من سكرات الموت بعد أربعين يوما من خلافته ، فقيل له :

ـ ألا تستخلف ؟

فقال فى صوت خافت فيه مرارة :

ـ ما أحببت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها ؟

كان عبد الله بن الزبير خليفة على مكة والمدينة لم يبايع يزيد بن معاوية ، وكان من رأى مروان بن الحكم أن يرحل فينطلق الى ابن الزبير فيبايعه ٠ وضايق هذا الرأى بنى أمية فاجتمعوا الى مروان ، وقال قائل منهم :

ـ استحييت لك مما تريد ٠ أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنعه ؟ !

فقال مروان :

ـ ما فات شىء بعد ٠

فقام معه بنو أمية ومواليهم ، وتجمع اليه أهل اليمن فسار وهو يقول :

ـ ما فات شيء بعد ·

فقدم دمشق ومن معه فبايعه أهل الشام بالخلافة ، ثم أمر مروان أهل الشام بالبيعة من بعده لابنيه عبد الملك وعبد العزيز فأصبح عبد العزيز وليا للعهد ·

كان عبد العزيز يعيش فى قصر عظيم به اصطبل يضم أفخر الجياد العربية ، وكان عمر بن عبد العزيز يجوس خلال القصر وكان مولعا بالخيول ، فكان يذهب الى الاصطبل يربت على الخيل ويمسح على رقابها ، وفى ذات يوم ضربه فرس فشجه ، وطار الخبر الى أبيه فجاء يجرى وفى وجهه هلع ، ومن خلفه رجال القصر ، ودخل عبد العزيز الاصطبل خافق القلب يلفه خوف شديد ، ورأى الدم ينبثق من وجه ابنه فخف اليه يمسح الدم عنه ، ورن فى أغواره قول عمر الذى تناقلته الأجيال : « ان من ولدى رجلا بوجهه شجان يلى فيملأ الأرض عدلا » · فاذا بالرهبة التي نزلت على قلبه تنقشع ، واذا بأمل باسم يولد فى نفسه فينبسط وجهه بعد اكفهرار ، واذا بيسمة سعيدة تتوج شفتيه فيقول وهو يضم عمر الى صدره فى حنان :

ـ ان كنت أشج بنى أمية انك اذا لسعيد ·

وكان فى القصر كل ما يدخل السرور على مثل من كان فى مثل سن عمر ، فالحدائق بهجة للنفوس ، ونافورات المياه رائعة غاية الروعة تأخذ بالألباب ، والجوارى المغنيات يترنمن كل ليلة بأعذب الألحان ،

ولكن الفتى عزف عن كل ذلك اللهو وعكف على قراءة القرآن ٠

كان مرهف الحس ، فكانت آيات المـوت والبعـث والحساب تهزه من الأعماق يقشعر منها جلده وتحرك فيه مكامن الخشية من الله ، فتنهمر الدموع من عينيه انه يبكى حتى لتكاد كبده تتصدع من البكاء ٠ ودخلت أمه عليه فألفته يذرف عبراته ، فنظرت اليه فى دهش وهى تعجب : انه فى نعمة سابغة ، ابن ولى العهد ، بين يديه كل ما يتمنى ، فما الذى أجرى دمعه ؟

فقالت الأم فى اشفاق :

ــ ما الذى يبكيك يا بنى ؟

فقال دون أن يرفع رأسه :

ــ تذكرت الموت فبكيت ٠

وفى لحظة رفعت أمام الأم أقنعة الغرور عن الواقع الأليم ، الكل باطل ، كل نعيم زائل ، وكل ما هى فيه من عز سراب ، فالموت هو الحقيقة التى لا ريب فيهـا ٠ فاضطربت ليلى من رأسها الى قدمها واعتصر الأسى فؤادها فسالت دموعها ، واستشعرت وحدة قاتلة وان كانت فى قصرها بين خدمها ووصيفاتها ، فضمت عمر الى صدرها فامتزجت دموعها بدموعه ٠

- ٤ -

كان عمر يحب أن يصغى الى كل من يحدثه عن مآثر جده العظيم ، فكانت أمتع لحظات حياته تلك التى يمضيها مع أمه ليلى بنت عاصم وهى تحدثه عن عدل عمر وسيرته العطرة ، وتروى له مواقفه العظيمة مع عماله وقواده والفقراء والمساكين • وكانت السويعات التى تجمع بينه وبين عمه عبد الله بن عمر أعظم فترات عمره ، فعمه الذى كان يقتفى أثر الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقص عليه أنباء الدعوة مذ أول يوم أشرق النور فى مكة ، انه يتلقى عنه سيرة الخلفاء الراشدين الهادين المهديين • وكان الفتى يكثر السؤال عن أعمال الفاروق ، فكان ابن عمر يقص عليه ما يروى غليله ، وما يملؤه زهوا ويحرك آماله وأمانيه •

وكان عمر بن عبد العزيز من بنى أمية ، فكان يتلقى عنهم آراءهم فى الامام على كرم الله وجهه ، فلا عجب أن كان رأيه فيه وهو غلام لا يختلف كثيرا عن آراء شيوخ الأمويين • انه يحب أبا بكر وعمر وعثمان ولكنه مفتون بعمر ، وانه ليذكر تلك الخطبة التى خطبها

معاوية بن يزيد بن معاوية لما خرج على الناس وهو فى مرضه الأخير · ان قوله ليدوى فى جوفه لكأنه صوت القدر : « أما بعد ، فانى نظرت فى أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ·

ان التقى معاوية بن يزيد لم يجد فى النــاس مثل عمر ، فقد أصبح عمر بن الخطاب أملا لصلاح الأمة ، فراح عمر بن عبد العزيز يفكر فيما رفع الفاروق الى هذه المنزلة التى لا يتسامى اليها حاكم ، ففطن الى أن ابن الخطاب حاسب نفســه قبــل أن يحاسب عمــاله وقواده ورعيته ، وأنه استغل دنياه لآخرته وقطع نفسه عن الشهوات · فعقد عمر بن عبد العزيز النية على أن يتحصن بالعلم ، ويأخذ نفسه بالشدة ، وأن يكون الناس عنده سواء ·

انها رياضــة روحيــة أمرها عسير ، فالتحرر من عبودية الأهواء والنزوات والجهل ليس شــيئا هينا لشاب مثله نشــأ فى بحبوحة من العيش ، وان اغلاق فؤاده دون الماديات التى يزخر بها القصر يحتاج الى عزم · انه يريد أن يكون كاملا كما كان جده العظيم ، فعليــه أن يتحمــل فى صبر قســوة الحرمان الذى سيفرضه على نفسه ، بل عليه أن يجد لذة روحية فى ذلك الحرمان تفوق كل لذات الحياة الدنيا ·

انه يريد ، ولكن الارادة دون العمــل واحتمــال

المتاعب لا تحقق شيئا • انه يطلب من غلام له أن يفعل شيئا ولكن الغلام لا يفعل ما طلبه ، فأراد عمر ضربه فقال له الغلام :

ـ اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة •

فتسمر عمر فى مكانه وحقد على نفسه • انه لم يستطع أن يكظم غيظه ولم يتمثل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه عليه السلام لم يقل لغلام ممن كانوا يخدمونه لشىء فعله لم فعل هذا ، ولم يقل لشىء لم يفعله لم لم تفعل هذا ؟ انه هم بضرب غلامه ، ولولا أنه تذكره بهول يوم القيامة لفعل كما يفعل السفهاء بغلمانهم •

ان رياضة نفسه لم تكتمل ، وعليه أن يصبر طويلا لو أراد أن يكون فى زهد جده وعدله وتفانيه فى اسعاد الناس واراحتهم ، ولو كان ذلك على حساب راحته •

كان مروان بن الحكم قد هلك وولى أمر المسلمين من بعده عبد الملك بن مروان ، وعادت مصر الى الأمويين بعد حروب طويلة ، فأمر عبد الملك أن يتولى أخوه عبد العزيز امارة مصر ، فراح عبد العزيز وزوجه ليلى بنت عاصم يتأهبان للسفر • وأطرق عمر بن عبد العزيز يفكر فى أمره ؛ انه يهفو الى المدينة ويتحرق شوقا الى علمائها • ليت أباه يقبل أن يبعثه الى حلقات الدرس هناك ليتزود بعلم نافع ينير له بصيرته ويعينه على فهم كنه الحياة •

وجاء الخليفة عبد الملك بن مروان وأخته فاطمة بنت مروان لوداع أخيهما عبد العزيز قبل سفره • وخطر على قلب عمر أن يحدث عمته فاطمة عن أمنيه لتقنع

أباه برغبتـــه ، ولكنه آثر أن يعبر لأبيـــه عمـــا يجول بخاطره • فلما قال له أبوه :

ـ هيا بنا الى مصر •

قال له فى ثبات :

ـ يا أبة ! أو غير ذلك لعله يكون أنفع لى ولك •

ـ وما هو ؟

ـ ترحلنى الى المدينة فأقعــد الى فقهائها وأتأدب بآدابهم •

وخرجت من الشـــام قافلتان : قافلة ولى العهــد عبد العزيز بن مروان شاخصة الى مصر ، وقافلة عمر ابن عبد العزيز منطلقة الى المدينة وقد أحاط به الخدم • وما كان يشعر بالقافلة ولا بمن فيها فقد كان غائبا عن الجميع بتلك اللهفة التى استولت عليه ، لهفة الجلوس الى العلماء والفقهاء •

— ٥ —

لاحت أرباض المدينة فاستشعر عمر بن عبد العزيز
رهبة ، انه قادم على رسول الله صلى الله عليــه وسلم
وعلى المدينة المباركة التى فتحها القرآن ، فالأنصـــار
الذين قابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأول مرة
فى موسم الحج ، وألقوا سمعهم الى القرآن ، أضاء
نوره صدورهم فعادوا الى يثرب ينشرون فى حمـــاس
للدين الجديد ٠
ان نبى الاسلام صلوات الله وسلامه عليه فر بدينه
من مكة اليها ، فاستقبله أهلهــا بالأهازيج ، وأكرموا
مثواه ، وكانوا أبر به من أهــله ٠ وان الفتى اليافع
الذى لم يبلغ الحلم بعد يترك الشام ويأبى الرحيل الى
مصر ليشد اليها الرحال ، فقد أصبحت بفضل القرآن
وبفضل ما خلف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
من علم منارة للنور ٠
وراح عمــر بن عبد العزيز يتأهب لدخول المدينة ،
رجل شعره وارتدى ثيابا من الحرير ، ثم راح يمرر
يده على ثوبه ويقول :

ـ ما أحسنه لولا خشونة فيه ·
كان يريد أن يكون مثل جده عمر بن الخطاب ، ولكن
كان فى أول طريق تطوره النفسى لا يزال يسبغ ما هو
فيه من نعمة ، ولا يزال يختال فى مشيته ، فلم يقتل
بعد من أعماقه فكرة أنه ابن ولى عهد الدولة الاسلامية
ووالى مصر درة التاج الأموى ·
وانسابت القافلة فى طرقات المدينة قاصدة مسجد
الرسول ، فخفق قلب عمر خوفا ، فعلى بعد خطوات
يرقد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وأبو بكر
الصديق ، والفاروق عمر بن الخطاب مثله الأعلى
الذى يرجو أن يقدره الله ليعيد سيرته على الأرض
وانساب الى المسجد خاشعا يتلو بعض آيات القرآن
العظيم حتى بلغ قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال
فى صوت مضطرب :
ـ السلام عليك يا رسول الله ·
واذا بدموعه تنهمر وعبراته تخنقه ، فيأخذ فى
مناجاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو ينشج
بالبكاء وينتحب ؛ حتى اذا ما انتهى من دعائه ، خطا
الى اليمين خطوة وقال :
ـ السلام عليك يا أبا بكر ، يا صديق ، يا خليفة
رسول الله ·
واستمر فى مناجاة أبى بكر ، ثم خطا الى اليمين
خطوة ثم قال فى صوت متهدج :
ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين ، يا شهيد المحراب
وانفعل وهو يناجى جده العظيم وتمنى لو أن الراقد

فى مثواه يبوح له بسر عظمته وأن يرشده الى الطريق· انه يريد أن يتمثل به ، أن يهتدى بهـديه ، أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب الناس ، انها أمانى سهلة ، ولكن ما أصعب التطبيق ·

وصلى عمر فى محراب رسول الله صلى الله عليه وسلم · ان فى هـذا المحراب صـلى جميع الخلفاء الراشـدين · وما دار فى خـلده فى ذلك الوقت أنه خامس الراشدين · وأتم الصلاة وذهب ليصلى عند منزل الوحى ، فمر على دور رسول الله صلى الله عليه وسلم · انها دور متواضعة كانت تسكن فيها زوجاته ، ليس بها من زخرف الحياة شيئا ولكنها كانت ببساطتها وطهارتها وما شاهدته من أحداث أعظم من كل قصور الدنيا ، فالعظمة ليست فى الدور بل بساكنيها ·

وأتم عمر بن عبد العزيز صلاته عند منزل الوحى ، وقد تلقن أكثر من درس قبل أن يصل الى صـالح بن كيسان الذى جعله أبوه عنده ليؤدبه · كان صالح من أعظم علماء المدينة ، وكان لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فان كان عمر بن عبد العزيز ابن ولى عهد الخليفة ، فانه لن يتردد فى أن يقومه اذا ما بدا منه اعوجاج أو استخفاف بأمر الدين ونواهيه ·

وراح عمر يقضى معظم وقته مع صالح بن كيسان يتلقى عنه العلم ، وقد أعجب ابن كيسان بصلاح الفتى وتقواه وخشيته من الله وان كان لا يزال غضا · وذات يوم تأخر عمر بن عبد العزيز عن الصلاة مع الجماعة ، فقال له صالح بن كيسان فى غضب :

ـ ما شغلك ؟

فقال عمر معتذرا :

ــ كانت مرجلتى تسكن شعرى ·

ولم يقبل ابن كيسان ذلك بل ضايقه أن جارية كانت ترجل له شعره أخرته عن الصلاة مع الجماعة ·

فقال له :

ــ قدمت ذلك على الصلاة ؟

ولم يسكن غضب ابن كيسان فكتب الى عبد العزيز بن مروان بما فعل ابنه ، وذهب الرسول الى مصر وانطلق الى الفسطاط فعلم أن والى مصر يسكن فى حلوان ، فذهب اليه برسالة صالح بن كيسان ·

قرأ الأب الرسالة فغضب ، فما فعله ابنه ليس فعل رجل يرجى له أن يكون أشج بنى أمية الذى يملأ الأرض عدلا · فبعث عبد العزيز بن مروان رسولا الى ابنه وأوصاه بما يفعل ، وبلغ الرسول المدينة ودخل على عمر فلم يكلمه حتى حلق رأسه ، ولم يحنق عمر على مؤدبه بل زادت مكانته فى عينيه ، فانه لم يدلله لأنه ابن عبد العزيز بن مروان وعمه خليفة المسلمين ، بل فعل ما كان ينبغى أن يفعله مؤدب ناصح أمين ·

وكان عمر نهما فى العلم فلم يكتف بابن كيسان ، بل راح يختلف الى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه · وكان عمر بن عبد العزيز فى مجالسه يتحدث عن الامام على ابن أبى طالب أحاديث تلقاها عن الأمويين أعداء الامام ، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص عليا ، فلما أتاه عمر أعرض عبيد الله عنه وقام يصلى ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلم أقبل على عمر مغضبا ، وقال له :

ـ متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟

ففهمها عمر وكان فطنا . ان عليا كرم الله وجهه الذى ينتقصه من أهل بدر ، وقد رضى الله عنهم فكيف يجرى على لسانه بذم رجل الله عنه راض ؟ فقال معتذرا :

ـ معذرة الى الله ثم اليك ، والله لا أعود .

وتحرر عمر بن عبد العزيز من عصبية الأمويين وعرف الحقيقة ، وما عاد يذكر عليا الا بخير ، وانشرح صدره لأهل البيت .

وأوفى موسم الحج وجاء الحجيج من كل بلاد المسلمين ، ووفد حجاج مصر وعلى رأسهم واليهم عبد العزيز بن مروان ، فخف عمر لاستقبال أبيه وأمه يطفىء الشوق ويصغى الى أحاديثهما عن مصر وعن أحوال المسلمين بها .

وذهب عبد العزيز بن مروان الى صديقه عبد الله بن عمر يحمل اليه الهدايا ، ثم ذهب الى صالح بن كيسان وسأله عن ابنه ، فقال صالح بن كيسان فى صدق :

ـ ما خبرت أحدا الله أعظم فى صدره من هذا الغلام .

ـ ٦ ـ

كان عبد الملك بن مروان فى قصره مطرقا يفكر · ان أباه مروان بن الحكم قد أخـذ البيعة له ولأخيه عبد العزيز من بعده ، وانه ليرى أن ابنيه الوليد وسليمان أحق بالخلافة من أخيه · وراحت فكرة خلع عبد العزيز تلح عليه ، ولكنه يحسب حسابا للشعب الذى بايع لأخيه بالخلافة من بعده ، ويخشى أن يكون فى خلع عبد العزيز فتح أبواب الفتنة ، وأجهده فكره فبعث الى قبيصة بن ذؤيب ليستشيره فيما أهمه ·

كان قبيصة من أقرب المقربين من عبد الملك ، وقد قال عبد الملك لحجابه :

ـ لا يحجب عنى قبيصة أى ساعة جاء من ليل أو نهار اذا كنت خاليا أو عندى رجل واحد ؛ وان كنت عند النساء ادخل المجلس وأعلمت بمكانه ·

وجاء قبيصة بن ذؤيب فقال له عبد الملك : انه يريد خلع أخيه عبد العزيز بن مروان · فنهاه عنه قبيصة وقال :

ـ لا تفعل هذا ، فانك باعث على نفسك صوت

سعار ، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه ٠

وقبل عبد الملك نصيحة قبيصة على مضض ، ولكن الفكرة ظلت تلح عليه فكتب الى أخيه : « ان رأيت أن تعيد هـذا الأمر لابنى أخيك » ٠ فأبى عبد العزيز أن يكون الوليد بن عبد الملك خليفة بعد أبيه ، فان مروان ابن الحكم قد أوصى له بالخلافة بعد عبد الملك ٠ ولم يثن رفض عبد العزيز عبد الملك عن عزمه ، فعاد يكتب الى أخيه ليجعل الخلافة للوليد بعد عبد العزيز : « فاجعلها له من بعدك فانه أعز الخلق على أمير المؤمنين » ٠

ان كان الوليد أعز الخلق على أبيه ، فأبو بكر بن عبد العزيز أعز الخلق على أبيه أيضا ٠ فكتب عبد العزيز للخليفة : « انى أرى فى أبى بكر بن عبد العزيز ما ترى فى الوليد » ٠

وغضب عبد الملك فكتب الى أخيه : « احمل خراج مصر » ٠

فكتب اليه عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين انى واياك قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا ، وانى لا أدرى ولا تدرى أينا يأتيه الموت أولا ، فان رأيت الا تغثث على بقية عمرى فافعل » ٠

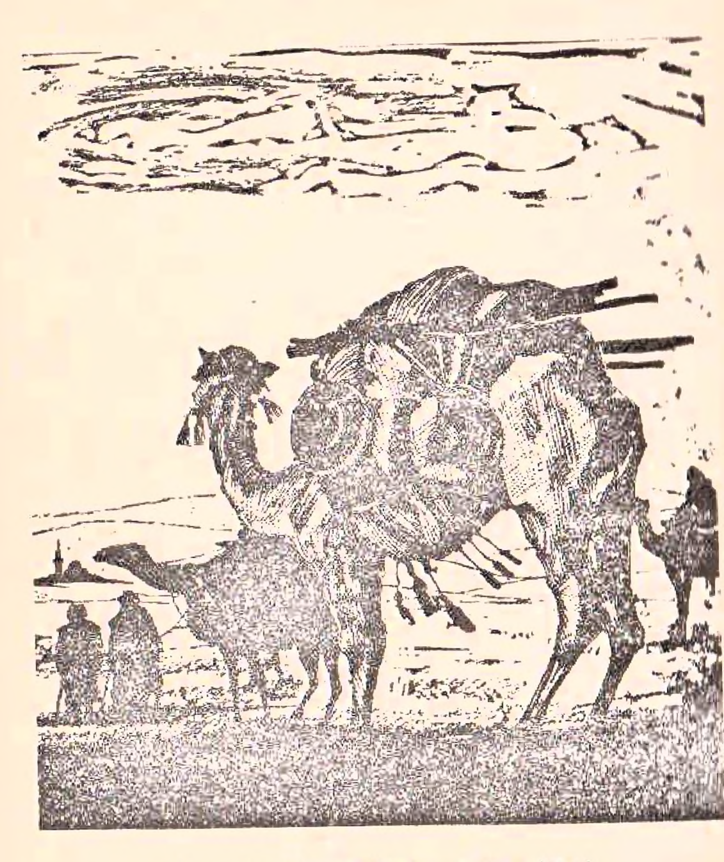
رق عبد الملك لأخيه وقال :

ـ لعمرى لا أغثث عليه بقية عمره ٠

وقال لابنيه الوليد وسليمان :

ـ ان يرد الله يعطيكماها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك ٠

وصمت قليلا ثم نظر الى ابنيه وقال :
ـ هل قارفتما حراما قط ؟
ـ لا والله ·
ـ الله أكبر ، نلتماها ورب الكعبة ·
ومرت الأيام وعادت فكرة خلع عبد العزيز تراو الخليفة ، فراح يغدو ويروح ونفسه تنازعه الى أ يخلع أخاه ، وفيما هو فى حيرته دخل عليه روح ب زنباع الجذامى وكان أجل الناس عنده ، فرا عبد الملك يكشف لصديقه عن سره الذى يقلقه ، فقا روح :
ـ لو خلعته ما انتطح فيه عنزان ·
ـ ترى ذلك يا أبا زرعة ؟
ـ اى والله ، وأنا أول من يجيبك الى ذلك ·
ودخل عبد الملك بن مروان وروح بن زنباع لينا على أن يخلعا عبد العزيز من ولاية العهد فى الصباح وفى ذلك الوقت كان رسول من مصر يطرق باب قبيص فخاتم الملك كان اليه ، وكانت الأخبار تأتيه قبل عبد المل ويقرأ الكتاب قبله ، ويأتى الكتاب الى عبد المل منشورا فيقرأه اعظاما لقبيصة ·
قدم الرسول الى قبيصة الكتاب الذى جاء به م مصر ، فقام قبيصة منطلقا الى قصر الخليفة فرا الحجاب يفسحون له الطريق حتى بلغ الحجرا الداخلية ، فطلب أن يوقظوا الخليفة لأمر هام ·
واستيقظ عبد الملك وروح بن زنباع ، ثم دخ قبيصة على الخليفة فسلم عليه وقال :



انه قادم على رسول الله صلى الله عليه وسلم

ـ آجرك الله يا أمير المؤمنين فى أخيك عبد العزيز ٠

ـ وهل توفى ؟

ـ نعم ٠

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠

ثم أقبل الخليفة على روح فقال :

ـ كفانا الله أبا زرعة ما كنا نريد وما أجمعنا عليه ، وكان ذلك مخالفا لك يا أبا اسحاق ٠

فقال قبيصة فى دهشة :

ـ ما هو ؟

ـ كنا قد عزمنا على أن نخلع عبد العزيز من ولاية العهد فى الصباح ٠

فقال قبيصة :

ـ يا أمير المؤمنين ان الرأى كله فى الأناة ، والعجلة فيها ما فيها ٠

ـ يرحم الله عبد العزيز ، مضى والله عبد العزيز لشأنه وتركنا وما نحن فيه ٠

وذاع خبر موت عبد العزيز فى القصر فبكت النساء ، ولما انتصف النهار بعث الخليفة عبد الملك بن مروان الى كاتبه محمد بن يزيد وقال له :

ـ ان عبد العزيز رحمه الله قد مضى لسبيله ولا بد للناس من علم وقائم يقوم بالأمر من بعدى ، فمن ترى ؟

ـ يا أمير المؤمنين أين تعدلها عن بنيك ؟ وأرضاهم وأفضلهم الوليد بن عبد الملك ٠

كان ذلك الحديث على هواه فقال :

ـ صدقت وفقك الله ، فمن ترى أن يكون بعده ؟

ــ يا أمير المؤمنين ، سيد الناس بعده سليمان فتى العرب ٠

ــ وفقت ٠ أما انا لو تركنا الوليد واياها لجعلها لبنيه ، اكتب عهدا للوليد وسليمان من بعده ٠

فكتب محمد بن يزيد بيعة الوليد ثم سليمان من بعده ، وكتب بيعتهما الى البلدان فبايع الناس ٠

وحزن عمر بن عبد العزيز لموت أبيه ، وسرعان ما ضمه عمه عبد الملك بن مروان الى أولاده ، فعاد الفتى الحزين الى الشام ليعيش بجسمه فى القصور ، وليهيم بروحه فى ملكوت الله يحاول أن يقرع أبواب السماوات ٠

خلط الخليفة عبد الملك بن مروان ابن أخيه عمر بن عبد العزيز بولده ٠ وكان عمر تقيا ورعا يقعد مع مشايخ العلماء ويتجنب مجالس اللهو والمجون ، فأحبه عبد الملك حتى أنه قدمه على كثير من ولده ٠ وكان يقول : « انه أشج بنى أمية الذى يملأ الأرض عدلا ، فمالى لا أحبه ولا أدنيه ؟ » ٠

وقد تعلق الفتى بعمه فكان ينزله منزلة والده عبد العزيز ٠

وخفق قلب الفتى بحب ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك، فقد كانت للفتى كبد تهفو الى الجمال ٠ فاطمة رائعة الحسن آسرة الطرف ، وكانت عمته فاطمة بنت مروان تكثر الدخول على أخيها الخليفة . وكانت تمضى بعض الوقت فى مسامرة شباب القصر ففطنت الى الحب الذى يعتمل فى فؤاد عمر ، فدخلت على أخيها تلتمس

منـــه أن يزوجَ ابنتـــه فاطمـــة من ابن أخيه عمـــر بن عبد العزيز •

وانشرح صدر الخليفة لذلك الطلب ، فعمـــر كفء لفاطمة ، وما كان عبد الملك بن مروان ليطمع فى زوج أصلح منه لابنته • وحدث عبد الملك ابن أخيه فى ذلك الأمر فقال :

ـ يا ابن أخى قد زوجك أمير المؤمنين بنته فاطمة •

فقال عمر :

ـ وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزلت وكفيت •

وفرح عمر فقد كان زواجه من فاطمة أملا فأصبح حقيقة •

- ٧ -

وتأهب قصر الخلافة لزواج بنت الخليفة من ابن ولى العهد الذى قضى تحبه هناك فى مصر · وغنى المغنون والمغنيات ، وأقيمت الأفراح فى الشـــام ، وتم زواج عمـــر بن عبد العزيز من فاطمة بنت عبد الملك حبيبة الفؤاد ·

وكان عمر يتجنب شباب الأسرة ، ولكن صـــداقة وطيدة نشأت بينه وبين ابن عمه سليمان بن عبد الملك ولي العهد · كان سليمان معجبا بخلق عمر وبنأيه عن اللهو وانكبابه على طلب العلم وخشيته من الله ، فما يكاد عمر يتذكر الموت حتى ينهمل الدمع من عينيه ، أنه مرهف الحس ذكى الفؤاد ·

وراح عمر يقرأ فى الكتب · لم يكتف بالعلماء الذين كانوا يؤمون القصر ، فقد كان يعلم أن من عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه · وارتفع صوت المؤذن بالعشاء فقام عمر يصلى يطيل فى الركوع وفى السجود ، حتى اذا ما قضيت الصلاة أخـــذ يبكى كأن

النار لم تخلق الا له ، فما كان أحد أشد فرقا من ربه منه .

دخل لينام فأخذ يقرأ : « أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحا وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشـاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقدجاءتهم رسلهم بالبينات فماكانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبـل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » .

وأصبح الصباح فاذا جلبة فى القصر . كان الخليفة خارجا ، فأطل عمـر بن عبد العزيز ينظر فرأى خيلا وبراذين وبغـالا مطهمة مربوطة وحراسـا ، وخرج عبد الملك بن مروان فاذا بصاحب الشرطة يسـير بين يديه بالحربة ، حتى اذا بلغ جواده خف العبيد لمعاونته على امتطاء دابته . فشرد عمر يفكر : ان معاوية بن أبى سفيان ركب هذه المواكب وركبها من بعـده ابنه يزيد ، وسعد بها مروان بن الحكم . أين معاوية ويزيد ومروان بن الحكم ؟ انهم ذهبوا بحسناتهم وسيئاتهم . خرجوا من الدنيا بأكفانهم .

وهمس فى جوفه هامس : « أدلك على أكفان لا تبلى ؟ تقوى الله والعمل الصالح » .

وراح يناجى نفسه : « والله ان عبدا ليس بينه وبين آدم أب الا قد مات . ان الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، تسر قليلا وتحزن طويلا » .

وولى عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب ، فصار الى طنجة وقد جعل على مقدمته طارقا ، فراح يقتل الملوك ويسبى النساء • وقد بعث الى الوليد بن عبد الملك جارية رائعة الجمال فوهبها الوليد الى أخته فاطمة ، فلما رآها عمر أعجبته ، فسأل زوجته فاطمة اياها اما بيعا أو هبة فأبت عليه ذلك •

كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد ، والزهاد الملازمين للمسجد التالين للقرآن ؛ فما كان فى المدينة أيام أن كان واليا عليها أفقه ولا أقرأ لكتاب الله منه • وكان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان • فكانت الخلوة بينه وبين عمر متعة لابن عبد العزيز ؛ فليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، انما العبادة التفكر فى أمر الله والورع من محارم الله •

وما انقضت سنة على وفاة عبد العزيز بن مروان حتى كان عبد الملك يحتضر ، فدخل عليه ابنه الوليد يبكى فقال له :

ـ ما هذا ؟ أتحن حنين الجارية والأمة ؟ اذا أنا مت فشمر وأتزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشا •

ووقف عمر بن عبد العزيز يسح الدموع فى صمت ، فالرجل الذى أحبه يقضى آخر أيامه على الأرض ، وشهق عبد الملك شهقة ثم قال للوليد :

ـ يا وليد اتق الله فيما أستخلفك فيه ، واحفظ وصيتى وانظر الى أخى معاوية فصل رحمه، واحفظنى

فيه ، وانظر الى أخى محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر الى ابن عمنا على بن عباس فانه قد انقطع الينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق ، فصل رحمه واعرف حقه ، وانظر الى الحجاج بن يوسف فاكرمه فانه هو الذى مهد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لك الملك وشتت الخوارج • وأنهاك واخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا فى الحرب أحرارا وللمعروف منارا ، فان الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وان المعروف يشيد ذكر صاحبه ويميل القلوب بالمحبة ويذلل الألسنة بالذكر الجميل •

وزفر عبد الملك زفرة طويلة ثم قال للوليد :

ـ أنا ان مت فادع الناس الى بيعتك ، فمن أبى فالسيف • وعليك بالاحسان الى اخوتك ، فأكرمهم وأحبهم الىّ فاطمة •

ونظر الى فاطمة فألفاها تبكى ، وقد روح عنه أنه يراها تلبس قرطى مارية والدرة اليتيمة التى أهداها اياها • واستمر ينظر الى فاطمة ثم قال :

ـ اللهم احفظنى فيها •

والتفت الى من عنده وقال :

ـ ارفعونى •

فرفعوه حتى شم الهواء وقال :

ـ يا دنيا ما أطيبك ! ان طويلك لقصير ، وان كثيرك لحقير ، وانا كنا بك لفى غرور •

ودنا عمر بن عبد العزيز وقال :

ـ كيف تجدك ؟

ـ أجدني كما قال الله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » ٠

وجعل يندم ويضرب بيده على رأسه ويقول :

ـ وددت أني اكتسبت قوتي يوما بيوم ، واشتغلت بعبادة ربي عز وجل وطاعته ٠

ومات عبدالملك بن مروان ، فحزن عمر بن عبدالعزيز على عمه ولبس المسوح تحت ثيابه سبعين يوما ٠ وراح يفكر في الذي فعله ، ففطن الى حقيقة كانت غائبة عنه ، فالباكي انما يبكي على نفسه ٠

رجع الوليد من دفن أبيه ، فلم يدخل قصره حتى صعد منبر المسجد الأعظم بدمشق ، فخطب الناس فكان مما قال :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا في أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا ٠

فقام اليه الناس يبايعون ٠

- ٨ -

كان الوليد حازما ،فكان أول ما فعله أن عزل هشام ابن اسماعيل عن امرة المدينة لأنه أساء الى أهل المدينة فى مدة ولايته عليهم ، وكانت نحوا من أربع سنين ، وولى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك ، عمر بن عبد العزيز · فدخلها على ثلاثين بعيرا فنزل دار مروان ، وجاء الناس للسلام عليه وعمره اذ ذاك خمس وعشرون سنة ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان ابن يسار مولى أم سلمة أم المؤمنين ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— انى انما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق · انى لا أريد أن أقطع أمرا الا

برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فان رأيتم أحدا يتعدى أو بلغ عن عامل الى ظلامة ، فأحرى على من بلغه ذلك الا يلغنى .

فخرجوا من عنده وهم يرجون منه كل خير ، فأين ذلك الشاب التقى الذى استعان بالفقهاء من ذلك الوالى هشام بن اسماعيل الذى كان كل همه أن يسىء الى أهل المدينة وعلمائها .

وكان يصلى بالناس فى مسجد الرسول فكان يصلى خلفه بعض الصحابة والتابعين . كان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود ، فقال فيه أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ ما صليت وراء امام أشبه بصلاة رسول الله من هذا الفتى .

وكان الوليد يسىء الرأى فى هشام بن اسماعيل ، فلم يكتف بعزله بل أراد أن يتيح لكل من أساء اليهم هشام فرصة القصاص منه ، كان يسىء الى سعيد بن المسيب ، وكان سعيد رجلا فاضلا عالما لم يمش الى خليفة أبدا ، ووالى على زين العابدين بن الحسين . فكتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز بأن يوقف هشام ابن اسماعيل للناس عند دار مروان ، فأوقف عمر هشام بن اسماعيل للناس ليوجهوا اليه الاتهامات ، فقال سعيد بن المسيب لابنه ومواليه :

ـ لا يعرض منكم أحد لهذا الرجل فى ؛ تركت ذلك لله وللرحم ، وأما كلامه فلا أكلمه أبدا .

وأما على زين العابدين بن الحسين ، فانه مر ولم يتعرض له بل قال فى رقة :

ـ هل لك من حاجة تقضيها لك ؟

فلما اجتاز به وتجاوزه ناداه هشام :

ـ الله يعلم حيث يجعل رسالته ٠

كانت لعمر بن عبد العزيز نفس تواقة ، لا تنال شيئا الا تاقت الى ما هو أفضل منه ، انه يرى صفح على زين العابدين الجميل عمن أساء اليه ، فعزم على أن يعود نفسه الصفح الجميل عمن يسيئون اليه ٠

كانت أمنيته وهو غلام أن يرحل الى المدينة فيقعد الى فقهائهـا ويتأدب بأدبهم ، وجاء الى المدينة يافعا ونهل من علومها ٠ وها هو ذا يعود اليها وهو واليها فلم ينقطع عن طلب العلم ، فكان العلماء يدخلون عليه ٠ وذات يوم خرج من عنده سليمان بن يسار ، فرآه رجل وهو خارج فقال له :

ـ من عند عمر خرجت ؟

ـ نعم ٠

ـ تعلمونه ؟

ـ نعم ٠

ـ هو والله أعلمكم ٠

وذاع أمر ورعه فى المدينة ، فكان سعيد بن المسيب الذى لم يدخل أبدا على خليفة استخفافا بشأنه يذهب الى عمر بن عبد العزيز ويدخل عليه ويجد سعادة فى حوار الشاب التقى الذى ورث عن أبيه أموالا طائلة فلم تغره الدنيا ولم تفتنه عن آخرته ٠

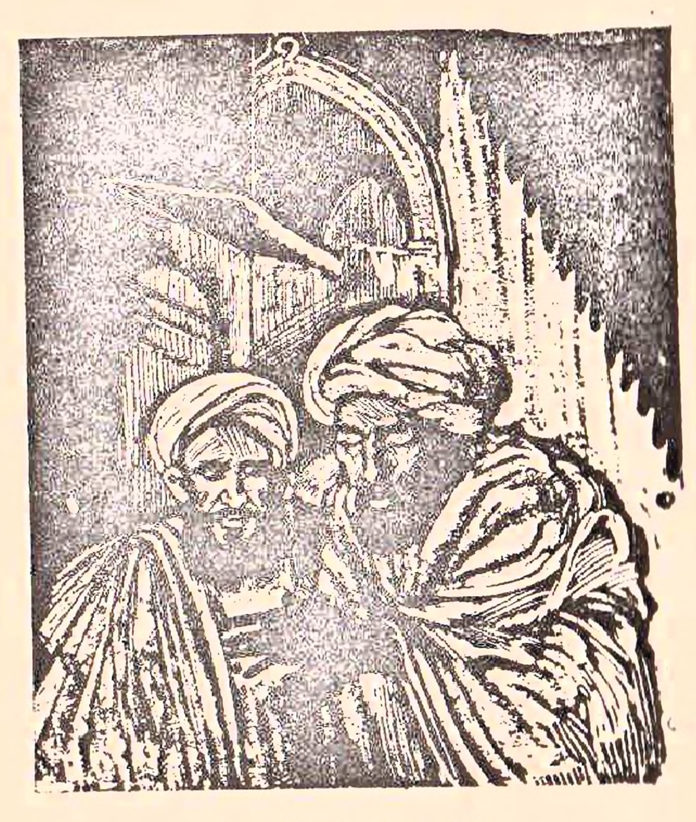
وقدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوى واضافة مساكن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع . « فمن باعك ملكه فاشتر منه ، والا فقومه له قيمة عدل ثم اهدمه وادفع اليهم أثمان بيوتهم ، فان لك فى ذلك سلف صدق عمر وعثمان » .

فجمع عمر بن عبد العزيز الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد ، فشق عليهم ذلك وقالوا :

ـ هذه حجر قصيرة السقوف ، وسقوفها من جريد النخل وحيطانها من اللبن وعلى أبوابها المسوح ، وتركها على حالها أولى ، لينظر اليها الحجاج والزوار والمسافرون والى بيوت النبى صلى الله عليه وسلم فينتفعوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون ذلك أدعى لهم الى الزهد فى الدنيا فلا يعمرون فيها الا بقدر الحاجة وهو ما يستر ويكمن ، ويعرفون أن البنيان العالى انما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة وكل طويل الأمل راغب فى الدنيا وفى الخلود فيها .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة ، فأرسل اليه يأمره بالخراب وبناء المسجد على ما ذكر ، وأن يعلى سقوفه ، فلم يجد عمر يدا من هدمها .

وشرعوا فى الهدم ، فصاح الأشراف ووجوه الناس من بنى هاشم وتباكوا مثل يوم مات النبى صلى الله



— تعلّمونه ؟ هو والله أعلمكم !

عليه وسلم ، وأجاب من له ملك متاخم للمسجد للبيع فاشترى عمر منهم وشرع فى بنائه ، وشمر عن ازاره واجتهد فى ذلك • وأرسل الوليد اليه فعلة كثيرة وراحوا يهدمون حجرة عائشة ، فلما حفروا الحائط الشرقى منها بدت لهم قدم فثبتوا فى أماكنهم مفزوعين، خشوا أن تكون قدم النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما تحققوا أنها قدم عمر رضى الله عنه عاودوا العمل •

وأرسل الوليد الى ملك الروم يسأله أن يعينه فى بناء مسجد الرسول ، فبعث اليه بمائة ألف مثقال ذهب ، وبعث اليه بمائة عامل ، وبعث اليه من الفسيفساء بأربعين حملا ، وبعث بذلك الوليد الى عمر بن عبد العزيز •

وابتدأ عمر فى بناء المسجد ، وأنكر سعيد بن المسيب دخول حجرة عائشة فى المسجد فقد خشى أن يتخذ القبر مسجدا ، فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقواما اتخذوا القبور مساجد •

وتأهب عمر بن عبد العزيز للحج بالناس فخرج من قريش ، أرسل اليهم بصلات، وظهر للحمولة • واحرموا معه من ذى الحليفة ، فلما كان بالتنعيم لقيهم نفر من قريش فأخبروه أن مكة قليلة الماء وأنهم يخافون على الحاج العطش ، ذلك أن المطر قل ، فقال عمر :

ـ فالمطلب ها هنا بين ، تعالوا ندع الله •

ودعوا ودعا عمر بن عبد العزيز معهم • كان دعاء حارا نابعا من قلوب مؤمنة بالله عامرة باليقين • فما وصلوا الى البيت ذلك اليوم الا مع المطر ، فراحوا

ينظرون الى عمـــر فى فرح · استجاب الله لدعائهم ، وانها لنعمة كبرى أن يستجيب الله الدعاء ·

وسكبت السماء ، وجاء سيل الوادى فجأة فخافه أهل مكة · ونزل المطر بعرفة ومنى ونبتت مكة فكانت سنة رغد ورخاء · وما فتىء النـــاس يذكرون دعاء الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ·

- ٩ -

كان عمر بن عبد العزيز يعيش فى المدينة مفتوح القلب مفتوح العينين، فمدينة الرسول تعج بالصالحين الذين يستطيع أن يتأسى بهم .. انه يتحدث الى أنس ابن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسمع منه أحاديث جمة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وعن الصديق والفاروق وعثمان وابن مسعود وغيرهم ، ان أنس بن مالك كان يحمله على جناح الذكريات ليعيش أروع أيام الاسلام .

انه لا يذكر ما ناله من أذى على يدى الحجاج بن يوسف الثقفى ، ولكن ابن عبد العزيز سمع بمظالم الحجاج فكرهه . توهم الحجاج أن أنس بن مالك له دخل فى مقاومة سلطان الأمويين فى مكة ، فختمه الحجاج فكرهه . توهم الحجاج أن أنس بن مالك له الختم فيزداد مقتا للطاغية والطغيان ..

وكان أنس يقول :

ـ خذ عنى فأنا أخذت عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل ، ولست تجد أوثق منى .

فكان عمر بن عبد العزيز يأخذ عنه ، فما بقى أحد صلى الى القبلتين غيره • ان أنس أحرم من ذات عرق فما سمعه أحد متكلما الا بذكر الله عز وجل حتى أحل • فتعلم عمر منه أن هذا هو الاحرام •

وكان يجالس سعيد بن المسيب سيد التابعين ، وكان يروى له عن عمر بن الخطاب فقد سمع منه ، وكان حديث الفاروق احب الأحاديث الى ابن عبد العزيز • كان يلقى اليه سمعه فلا يظن عند أحد علما غيره فهو فقيه الفقهاء • وكان عمر بن عبد العزيز يسأله عن قضايا عمر وأحكامه ، ولا غرو فعبد الله بن عمر كان يسأله عنها •

وكان سعيد بن المسيب لا يأخذ العطاء ، وكانت له بضاعة أربعمائة دينار ، وكان يتجر فى الزيت ، وكان أورع الناس ، وكان من أزهد الناس فى فضول الدنيا والكلام فيها لا يعنيه ، ومن أكثر الناس أدبا فى الحديث • وما نودى للصلاة الا وسعيد فى المسجد •

وكان يقول :

ـ ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله ، ولا أهانت أنفسها الا بمعصية الله تعالى •

ويقول :

ـ من استغنى بالله افتقر الناس اليه ••

وكان لسعيد ابنة من أحسن النساء ، وأكثرهن أدبا ، وأعلمهن بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهن بحق الزوج • خطبها عبد الملك لابنه

الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها وزوجها لرجل فقير على درهمين ، وأرسل اليه بخمسة آلاف وقال :

ـ استنفق هذه ..

وكان يتجر فى ماله ويقول :

ـ اللهم انك تعلم أنى لم أمسكه بخلا ولا حرصا عليه ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وانما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم فى وفيهم وأصل منه رحمى ، وأؤدى عنه الحقوق التى فيه ، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار ..

كان سعيد بن المسيب درسا حيا يتلقاه عمر بن عبد العزيز كل يوم ، فتساعد أعماله الجليلة على تكوين شخصية ابن عبد العزيز وارهاف حسه .

وكان عمر يكثر الجلوس الى على زين العابدين بن الحسين . انه بعد أن تلقى من معلمه درس عدم الخوض فى على بن أبى طالب ، عكف على معرفة حقيقة الامام وأهل البيت بعيدا عن تأثير أهله الأمويين ، فتيقن أن الامام من أفقه الناس وأعدلهم وأزهدهم . وامتلأ قلبه بحب أهل البيت فكانت الساعات التى يقضيها فى رفقة على زين العابدين ساعات عبادة وتحصيل ..

كان على بالمدينة محترما معظما ، فما كان هناك من قريش أورع منه ولا أفضل . كان ثقة مأمونا كثير الحديث عاليا رفيعا ، احترق البيت الذى هو فيه وهو قائم يصلى فلما انصرف قالوا له :

ـ ما لك لم تنصرف ؟

ـ انى اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى ..

كان اذا توضأ يصفر لونه ، فاذا قام الى الصلاة ارتعد . فقيل له فى ذلك فقال :

ـ ألا تدرون بين يدى من أقوم ولمن أناجى ؟ ..

وكان يقول :

ـ ان قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ، وآخرون عبدوه محبة وشكرا فتلك عبادة الأحرار .

وكان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم . فلما مات على بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم فى الليل بما يأتيهم به . أنه كان يؤمن أن صدقة الليل تطفىء غضب الرب ، وتنور القلب والقبر ، وتكشف عن الصدر ظلمة يوم القيامة .

ولما مات وجدوا فى ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب الى بيوت الأرامل والمساكين فى الليل . كان عمر بن عبدالعزيز يجلس حيث ينتفع ، ويطلب العلم حيث كان . ولقد كانت أيامه فى المدينة من أهم أيام حياته التى أثرت فى تكوين شخصيته ؛ فقد جلس الى الفقهاء والزهاد والى من كانت تقشعر جلودهم من خشية الله .

- ١٠ -

صار عمر بن عبد العزيز واليا على الحجاز كله ، فسار فى الناس سيرة جده العظيم عمر بن الخطاب فأحبته رعيته . وكان الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق يسوم النـــاس ألوانا من العذاب ، فكان عمر يكره طغيان الطاغية . فلما ولى الخليفة الحجاج على الحج ، وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ثار وكتب الى الخليفة يعبر له عن حقيقة مشاعره ، ويلتمس منه ألا يمر عليه الطاغية فى المدينة .

وكان الأمويون يشعرون بفضـــل الحجاج عليهم ، فهو الذى وطد لهم سلطانهم لما قتل عبد الله بن الزبير فى الحرم وقتل كل أعداء الأمويين . فكتب الخليفة الى الحجاج : ان عمر بن عبد العزيز كتب الى يستعفينى من ممرك عليه بالمدينة فلا عليك ألا تمر بمن يكرهك ، فنح نفسك عن المدينة .

ولم يمر الحجاج بن يوسف الثقفى بالمدينة . لم يمر بمن يكرهه . وأسرها فى نفســـه . ان هـــذه الاهانة والمهانة لا بد أن ترد لابن عبد العزيز ، ولا بد أن يكون

الرد قويا مدويا كما كانت الاهانة قوية صريحة لا لف فيهـــا ولا مداراة • وراح الحجاج يفكر : ان أخشى ما يخشـــاه الخليفة على ســـلطانه الخوارج الذين يخرجون كل يوم على طاعتــه • فلو جاءه من نقطة ضعفه لبلغ هدفه • فما لبث غير قليـــل بعد عودته من الحج حتى كتب الى الوليــد : « ان من قبلى من مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن » •

وفكر الوليد فى الرسالة فتحركت مخاوفه • انها اتهام صريح لعمر بن عبد العزيز أنه يأوى الخارجين عليه من أهل العراق الذين شقوا عصا الطاعة ، وانها لبداية فتنة لا يخمدها الا عزل عمـــر بن عبد العزيز وتولية مكة والحجاز والطائف واليا حازما شديدا مثل الحجاج • فكتب الى الحجاج أن أشر على برجلين •

وأثلج صدر الحجاج فقد نجح فى ايغـــار صـــدر الخليفة على زوج أخته ، فكتب اليه يشير عليه بعثمان ابن حيان وخالد بن عبد الله • فرأى الخليفة ألا يجمع الحجاز كله فى يد واحدة ، فولى خالدا مكة وعثمان المدينة وعزل عمر بن عبد العزيز •

وحزن عمر بن عبد العزيز حزنا شديدا واضطرب من الرأس الى القدم • ولم يكن حزنه على عزله ، ولم يكن اضطرابه خشـــية من الخليفة ، بل كان يخاف أن يكون ممن نفته المدينة • فقد روى عن الرســـول : ان المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد •

وخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة آسفا يستشعر

بالحزن يعتصر فؤاده • ثم التفت اليهـا وبكى وقال لمولاه :

ـ يا مزاحم • نخشى أن نكون ممن نفت المدينة ••

وانطلق الرجل الليِّن الدين الى السويداء وكانت أرضا يملكها على مقربة من المدينة وله فيها قصر ، فنزل بها • ولما أرخى الليل سدوله قام عمر يصلى فكان يسبح فى الركوع والسجود عشرا عشرا • ولما قضيت الصلاة راح يقرأ : « ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » •

واستمر يقرأ وهو يسح الدموع حتى اذا ما انتهى من قراءته دخل ونام ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى روضة خضراء فقال له :

ـ انك ستلى أمر أمتى فزع « فكف » عن الدم •

وقام من نومه ينتفض وسرعان ما سكن روعه : انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه وقد بشره صلوات الله وسلامه عليه بالخلافة ، فامتلأ غبطة برؤية الرسول عليه السلام وبالبشارة وبتأكده من أنه ليس ممن نفت المدينة ، فما كان فى يوم خبيثا بل كان من أورع من خرج منها وأكرمهم على الله •

وراح يفكر فى الخلافة فعزم على أن يسير سيرة عمر بن الخطاب اذا ما ابتلاه الله يوما بخلافة المسلمين •

ودخل عمر بن عبد العزيز الى الشام فكان ينطلق الى المسجد اذا ما نودى للصـــلاة • وذات يوم قام الوليد يخطب وكان لحانا فقرأ فى خطبته « يا ليتهــا كانت القاضية » فضم التاء فى ليتها • فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ يا ليتها كانت عليك وأراحنا الله منك •

كان عمـــر بن عبد العـــزيز يكره رعونة الخليفة وقسوته ، فهو لا يتوقف اذا غضب ، جبار ذو سطوة شديدة وكان يرى من الأمانة أن ينصحه ، فدخل عليه ذات يوم وعنده رجاء بن حيوة فقال له :

ـ يا أمير المؤمنين ، ان عندى لك نصيحة ، فاذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فسلنى عنها •

ـ هات ما عندك •

ـ انه ليس بعد الشرك اثم أعظم عند الله من الدم ، وان عمـــالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول ، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به ، فاكتب اليهم ألا يقتل أحــد منهم أحدا حتى يكتب لك بذنبه ثم يشهد عليه ، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح •

وكان يميل الى ابن عمه سليمان بن عبد الملك فقد كان سليمان رجل تقى ودين ومحبة للحق وأهله ، فكان يمضى معه ساعات لا حديث لهما الا الدين •

واجتمع الناس لصـــلاة الجمعة فى مسجد دمشق الذى بناه الوليد ، واذا بحركة عنـــد البـــاب فالتفت المصلون فاذا بموسى بن نصير قد لبس ثيابا حســـنة وهيئة حسنة يدخل ومعه ثلاثون غلاما من أبناء الملوك

الأسبان الذين أسرهم وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة · فلما نظر اليهم الوليد وهو يخطب الناس على المنبر عجب لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة ·

وجاء موسى بن نصير فسلم على الوليد وهو على المنبر ، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله · فحمد الله الوليد وشكره على ما أيده به ووسع ملكه ، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة ، ثم نزل فصلى بالناس ، ثم استدعى موسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطاه شيئا كثيرا ·

وخف عمر بن عبد العزيز الى موسى يسأله عن البلاد التى فتحها ، وعن أعجب شىء رأى فى البر وفى البحر ، وعن أحوال المسلمين فى تلك البلاد النائية ، بلاد الأندلس ، فقد كان عمر يخشى أن تنقطع الصلة بين المسلمين فى الشرق والمسلمين فى الأرض الجديدة ، ويشفق على الذين فتحوا بلاد الفرنجة أن يرق دينهم فيخسروا آخرتهم ودنياهم ··

وأراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع سليمان فأبى سليمان · فأراده على أن يجعله له من بعده فأبى ، فعرض عليه أموالا كثيرة فأبى · فكتب الى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز ، ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه أحد الا الحجاج ، وقال للخليفة قائل :

ــ ان الناس لا يجيبونك الى هذا ولو أجابوك لم آمنهم على الغدر بابنك ، فاكتب الى سليمان فليقدم عليك فان لك عليه طاعة ، فأرده على البيعة لعبد العزيز

من بعده فانه لا يقدر على الامتناع وهو عندك ، فان أبى كان الناس عليه •

فكتب الوليد الى سليمان يأمره بالقدوم فأبطأ ، فاعتزم الوليد على السير اليه وعلى أن يخلعه فأمر الناس بالتأهب ، ولكن الوليد مرض ورهقته غشية فظنوا أنه مات فبكوا عليه ، وأرسل بموته الى البلاد •

وقدم الرسول على الحجاج وأخبره بموت الوليد فقال فى فزع :

ــ انا لله وانا اليه راجعون ••

ثم أمر بحبل فشد فى يده ثم أوثق الى أسطوانة وقال :

ــ اللهم لا تسلط علىّ من لا رحمة له ، فقد طال ما سألتك أن تجعل منيتى قبل منيته •

وأفاق الوليد فقال :

ــ ما أحد أسر بعافية أمير المؤمنين من الحجاج !

فقال عمر بن عبد العزيز ساخرا :

ــ ما أعظم نعمة الله علينا بعافيتك ، وكأنى بكتاب الحجاج قد أتاك يذكر فيه أنه لما بلغه برؤك خر لله ساجدا ، وأعتق لله كل مملوك له ، وبعث بقوارير من أنبج الهند !

وقدم على الحجاج بريد بافاقة الوليد فكتب الى الوليد كتابا • فلما قرأه اذا فيه كل ما قاله عمر بن عبد العزيز ساخرا ، فقد كان على الرغم من نبله وتقاه قادرا على أن يستشف خبيئة النفوس ، فقد كانت فيه فراسة قلما تخيب •

وثقل المرض على الوليد فقام خادم يوضئه للغداء ، فمد الوليد يده فجعل الخادم يصب عليه الماء والخليفة ساه والماء يســيل ولا يستطيع الخادم أن يتكلم . ثم نضح الوليد الماء فى وجهه ، وقال :

ـ أناعس أنت ؟

ورفع رأسه الى الخادم وقال :

ـ ما تدرى ما جاء الليلة ؟

ـ لا .

ـ ويحك ! مات الحجاج ..

ومات الوليد فصلى عليه عمــر بن عبد العزيز لأن أخاه سليمان كان بالقــدس ، وأنزله الى قبره وقال حين أنزله :

ـ لتنزلنه غير موسد ولا ممهد ، قد خلفت الأسلاب وفارقت الأحباب وسكنت التراب وواجهت الحساب ؛ فقيرا الى ما قدمت ، غنيا عما أخرت .

وبويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة فدخل عمر بن عبد العزيز وزوجــه فاطمة بنت عبد الملك يعزيانه فى الوليد ويهنئانه بما أنعم الله عليــه . وكان أول شىء فعله الخليفة الجديد نزع عثمان بن حيان عن المدينة ، ولم يول ابن عمه عمر بن عبد العزيز عليها فقد رأى أن يصطفيه لنفسه .

واستبشر الناس بعهد سليمان ، فقــد بدأ عهــده باطلاق الأســارى واخــلاء السجون والاحســان الى الناس ، فقالوا :

ـ سليمان مفتاح الخير .

وكان سليمان ورجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز يسمرون معا .. فكان رجاء يلمس كل يوم فضائل عمر ابن عبد العزيز وورعه وتقاه فيزداد له حبا ويتمنى فى قرارة نفسه لو يؤول اليه الأمر ليسير فى الناس سيرة عمر بن الخطاب ؛ فقد كانت أيام الفاروق أمنية كل محب للاسلام والمسلمين .

- ١١ -

استمر عمر بن عبد العزيز يجلب العلماء ليأخذ عنهم . لقد أتوا اليه ليعلموه فما برحوا حتى تعلموا منه ، فقد كان العلماء عنده تلامذة .

وكان عمر بن عبد العزيز لا يفارق سليمان بن عبد الملك . انه يرى كل ما يجرى فى بلاط الخليفة ؛ وأموال المسلمين تنفق فى أبهة الحكم والسلطان . ان الخليفة يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى وقد عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية . وقد حاكى الناس خليفتهم فلبس الناس جميعا الوشى جلبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس . فلو أن أمير المؤمنين عرف الزهد لعرفه الناس - فالامام قدوة - ولكن سليمان كان يحفل بالمظهر ، فكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته الا فى الوشى ، وكذلك عماله وأصحابه ومن فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه وعلى المنبر . وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه الا فى الوشى ، حتى الطباخ فانه يدخل اليه فى صدره وشى

وعلى رأسه قلنسوة وشى طويلة ، وأمر أن يكفن فى الوشى المثقلة .

وأعجب سليمان سلطانه فالتفت الى عمر بن عبد العزيز وقال :

ـ كيف ترى ما نحن فيه ؟

فقال عمر فى استخفاف :

ـ سرور لولا أنه غرور ، وحياة لولا أنه موت ، وملك لولا أنه هلك ، وحسن لولا أنه حزن ، ونعيم لولا أنه عذاب أليم .

ودخل عليهما أعرابى فقال لسليمان :

ـ يا أمير المؤمنين انى أريد أن أكلمك بكلام فافهمه .

فقال له سليمان :

ـ انا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا نأمن غشه ، وأرجو أن تكون الناصح جيبا ، المأمون غيبا ، فهات .

ـ يا أمير المؤمنين أما اذ أمنت بادرة غضبك ، فسأطلق لسانى بما خرست به الألسن من عظمتك تأدية لحق الله وحق أمانتك .

يا أمير المؤمنين ! انه قد تكنفك رجال أساءو الاحسان لأنفسهم ، ابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، حرب للآخرة سلم للدنيا ؛ فلا تأمنهم على ما يأمنك الله عليه فانهم لم يأتوا الا ما فيه تضييع وللأمة خسف وعسف ، وأنت مسئول عما اجترموا وليسوا مسئولين عما

ولزمت . فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فان أعظم الناس عيبا بائع آخرته بدنيا غيره .

ـ أما أنت يا أعرابى فقد سللت لسانك وهو أقطع من سيفك .

ـ أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك .

ـ أما وأبيك يا أعرابى لا تزال العـرب بسلطاننا أكناف العز متبوئة ، ولا تزال أيام دولتنا بكل خـير مقبلة ، ولئن سـاسكم ولاة غـيرنا لتحمدن منـا ما سمعتم تذمون .

ـ أما اذا رجع الأمر الى ولد العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصنو أبيه ووارث ما جعله الله له أهلا ، فلا .

فتغافل سـليمان كأن لم يسـمع شـيئا ، وخرج الأعرابى ولكن صـوته كان يدوى فى وجدان عمر بن عبد العزيز .

كان عمر يرقب ما يجرى فى البلاط ويصغى الى كل ما يوجـه الى الخليفة من نقد ونصائح ، ان أبا حازم الأعرج أحد علماء دمشق يدخـل على أمير المؤمنين يقول له سليمان :

ـ يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟

فيقول له أبو حازم فى ثبات :

ـ لأنكم عمرتم دنيـاكم وأخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران الى الخراب .

ـ فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟

ـ أما المحسن فكالغائب يأتى أهله مسرورا ، وأما المسيء فكالعبد الآبق يأتى مولاه محزونا ٠

ـ فأى الأعمال أفضل ؟

ـ أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ٠

ـ فأى القول أعدل ؟

ـ كلمة حق عند من تخاف وترجو ٠

ـ فأى الناس أعقل ؟

ـ من عمل بطاعة الله ٠

ـ فأى الناس أجهل ؟

ـ من باع آخرته بدنيا غيره ٠

ـ عظنى وأوجز ٠

ـ يا أمير المؤمنين نزه ربك وعظمه ، بحيث أن يراك تجتنب ما نهاك عنه ولا يفقدك من حيث أمرك به ٠

فقال له بعض جلسائه :

ـ أسرفت ويحك على أمير المؤمنين ٠

فقال له أبو حازم :

ـ اسكت فان الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ، ليبيننه للناس ولا يكتمونه ٠

ثم خرج ، فلما صار الى منزله بعث اليــه سليمان بمال فرده وقال للرسول :

ـ قل له والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟

وعلم عمر بن عبد العزيز ولاريب بما قاله أبوحازم ان الرجل التقى لا يرى لأمير المؤمنين حقــا فيما بعث اليــه من مال ٠ ان ما فى بيت مال المسلمين للمسلمين

وليس للخليفة أن ينثره كيفما يشاء ، وراح عمر يفكر في ذلك القول فألفاه عين الصواب ٠

وخرج سليمان للحج وخرج عمــر بن عبد العزيز معه ، فلما وقفا بعرفة ورأى سليمان كثرة الناس قال له عمر :

ــ هؤلاء رعيتك اليوم وأنت مسئول عنهم غدا ، وهم خصماؤك يوم القيامة ٠

فبكى سليمان وقال :

ــ بالله نستعين ٠

ان سليمان عندما خرج للحج أخذ موسى بن نصير معه ، وكان عاتبا عليه فحبسه عنده وطالبــه بأموال كثيرة ، فلمــا ذهب سليمان الى المدينــة لزيارة قبر الرسول صلوات الله وســلامه عليــه مات موسى بن نصير الرجل الذى قال : لو انقاد النــاس لى لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية ٠

كانت فكرة فتــح القسطنطينية تراود ســليمان بن عبد الملك ، وما كان عمــر بن عبد العــزيز متحمســا لغزوها فراح سليمان يستشير موسى بن نصير فى هذا الامر قبل أن يخرج للحج ٠ فأشار عليه موسى بأن يفتح ما دونها من المدن والحصون حتى يبلغ المدينة فلا يأتيها الا وقد هدمت حصونها ووهنت قوتها ، فقال له :

ــ اذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد ٠

ثم استشار أخاه مسلمة بن عبد الملك فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنــوة ، ومتى

ما فتحت فان ما بقى ما دونها من البلاد والحصون بيدك ٠

فقال سليمان :

ـ هذا هو الرأى ٠

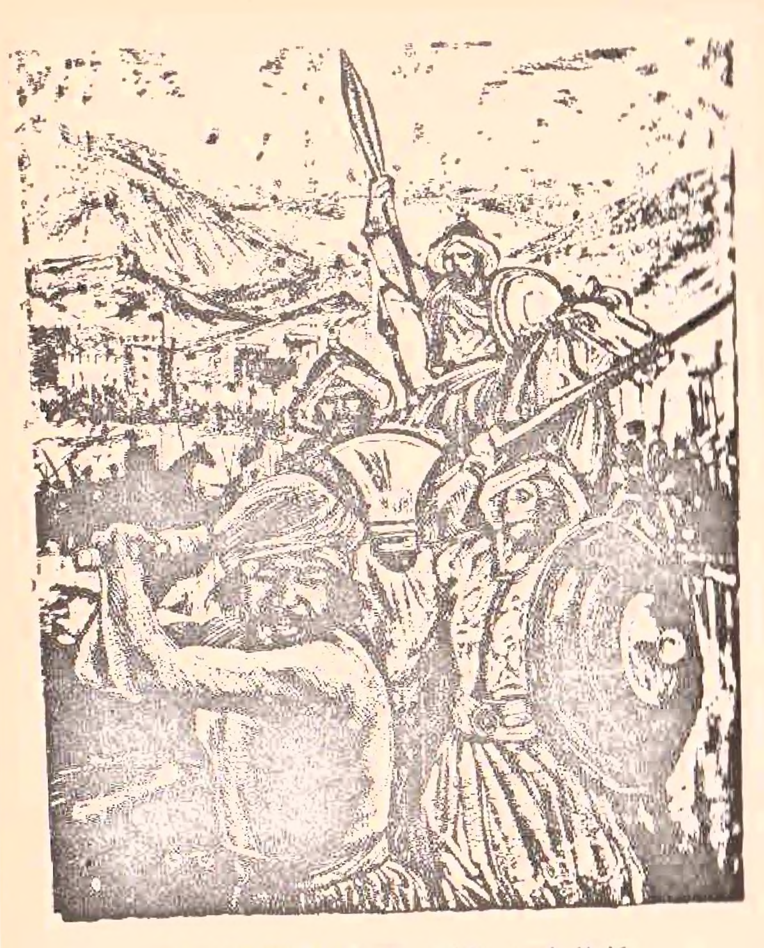
ثم أخذ فى تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة ، فجهز فى البر مائة وعشرين ألفا وفى البحر مائة وعشرين ألفا من المقاتلة ، وأخرج لهم الأعطية وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو القسطنطينية والاقامة الى أن يفتحوها ، وأمر على العساكر أخاه مسلمة ثم قال :

ـ سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف ٠

وانطلق مسلمة ليغزو القسطنطينية وقد أمر كل رجل من الجيش أن يحمل معه طعامه ٠ فلما وصل الى القسطنطينية جمع الطعام فاذا هو أمثال الجبال ٠ فقال لهم مسلمة :

ـ اتركوا هذا الطعام وكلوا مما تجدونه فى بلادهم وارعوا فى أماكن الزرع واستغلوه وابنوا لكم بيوتا من خشب ، فانا لا نرجع عن هذا البلد حتى نفتحها ان شاء الله ٠

وخرج مع مسلمة اليون الرومى ٠ انه اتفق مع مسلمة على أن يعاونه على أخذ بلاد الروم فظهر منه نصح فى بادىء الأمر ٠ فاطمأن المسلمون اليه وحاصروا القسطنطينية وطال الحصار ، فعرض أهلها الجزية على مسلمة فأبى الا أن يفتحها عنوة ، قالوا :



كان المسلمون يقاتلون عند اسوار القسطنطينية

ـ فابعث الينا اليون نشاوره ٠
كان ملك القسطنطينية قد مات فقال أهلها لاليون :
ـ رد هذه العساكر ونحن نعطيك ونملكك علينا ٠
فرجع الى مسلمة فقال :
ـ قد أجابوا الى فتحهـا غير أنهم لا يفتحوها حتى تتنحى عنهم ٠
ـ انى أخشى غدرك ٠

فحلف له أنه يدفع اليه مفاتيحها وما فيها ٠ فتنحى مسلمة عن القسطنطينية فأخذ أهلها فى ترميم ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصار ، وغدر اليون فأحرق تلك الطعام الذى للمسلمين ثم انشمر فى السفن وأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش فى الليـل ٠ وفى الصباح كان حربا على المسلمين ٠

وتحصن اليون واجتمعت عليـه الروم ، وضـاق الحال على المسلمين حتى أكلوا كل شىء الا التراب ٠

كان المسلمون يقاتلون عند أسوار القسطنطينية ، وكان الخليفة يفكر فيمن يرث الخلافة من بعده بعد أن مات أخوه مروان بن عبد الملك ٠ كانت الولاية لأخيه يزيد فعدل عنها الى ولاية أيوب ولده وأخـذ العهـد لولده انه الخليفة من بعده ٠

وراح عمر بن عبد العزيز يدعو الله قبل أن يدخل لينام :
ـ اللهم ان عمر ليس بأهل أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر ٠

ورأى عمر بن عبد العزيز رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقول :

ـ ادن يا عمر .

فدنا حتى خشى أن يصيبه عليه السلام فقال :

ـ اذا وليت فاعمل نحوا من عمل هذين .

فاذا كهلان قد اكتنفاه فقال :

ـ ومن هذان ؟

ـ هذا أبو بكر وهذا عمر .

- ١٢ -

كان عمر بن عبد العزيز مستشارا ووزيرا للخليفة . قال له بعد أن صار اليه الملك :

- انا قد ولينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به ليكتب .

فكان أن أشار عليه عمر بن عبد العزيز بعزل نواب الحجاج لقطع دابر الظلم ، واخراج أهل السجون منها فما أكثر المظلومين فيها . واطلاق الأسراء فعمر يمقت استعباد الناس ، ورد الصلاة الى ميقاتها الأول بعد أن كانوا يؤخرونها الى آخر وقتها .

انعكست طهارة عمر على أعمال سليمان فأحب الناس سليمان وان كان محرك الخير عمر . وفى ذات يوم كان عمر بن عبد العزيز فى سفر مع سليمان فأصابهم مطر السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة حتى فزعوا لذلك ، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك فقال له سليمان :

- ما يضحكك يا عمر ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟

ـ يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمته فيهـا شدائد ما ترى ، فكيف بآثار سخطه وغضبه ؟

ومات ولى العهد فحزن سليمان لفقده ، ولم يفكر في أن يتخذ له وليـا آخر للعهد فقـد كان لا يزال في الأربعين من عمره وكان معجبا بشـبابه ، فكان ينظر فى المرآة ويقول :

ـ كان محمد نبيا ، وكان أبو بكر صـديقا ، وكان عمر فاروقا ، وكان عثمان حييا ، وكان على شجاعا ، وكان معـاوية حليما ، وكان يزيد صـبورا ، وكان عبد الملك سائسـا ، وكان الوليد جبـارا ، وأنا الملك الشاب .

وخرج سليمان من دمشـق الى مرج دابق وأهل بيته ، ورجاء بن حيوة ، وكان وزير صـدق للأمويين وقد آلى على نفسه أن لا يرجع الى دمشق حتى تفتح القسطنطينية أو يموت .

وأقبـل سليمان ومعـه عمـر بن عبد العزيز على المعسكر وفيه خيول وجمال وبغـال وأثقال ورجال ، فنظر سليمان الى معسكره فى اعجاب وقال لعمر :

ـ ما تقول يا عمر فى هذا ؟

فقال عمر فى صدق :

ـ أرى دنيا يأكل بعضها بعضا ، وأنت المسئول عن ذلك كله .

ونظر سليمان فاذا غراب قد أخذ لقمة فى فمه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ثم نعق ، فقال سليمان :

ـ ما هذا يا عمر ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ ما ظنك أنه يقول ؟

ـ أعجب ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن اليها ٠

وراح سليمان وعمر بن عبد العزيز يتقاولان ، فقال له سليمان فى جملة الكلام :

ـ كذبت ٠

فقال عمر فى غضب :

ـ تقول كذبت ؟ والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله ٠

وهجره عمر وعزم على الرحيل الى مصر ، فلم يمكنه سليمان ٠ ثم بعث اليه فصالحه وقال له :

ـ ما عرض لى أمر يهمنى الا خطرت على بالى ٠

وكان اليوم يوم جمعة ، فلبس سليمان حلة صفراء ، ثم نزعها ولبس بدلا منها حلة خضراء ، واعتم بعمامة خضراء ، وأجلس على فراش أخضر ، وقد بسط ما حوله بالخضرة ٠ ثم نظر فى المرآة فأعجبه حسنه ، وشمر عن ذراعيه وقال :

ـ أنا الخليفة الشاب ٠

ثم عاد ينظر الى المرآة من فوقه الى قدمه ويقول :

ـ أنا الملك الشاب ٠

وشرع يتوضأ ثم خرج يصلى بالناس فأخذته بحة فى الخطبة ، ثم نزل وقد أصابته الحمى ، فأرسل الى رجاء بن حيوة واستشاره أن يولى له ابنا صغيرا لم يبلغ الحلم ، فقال رجاء :

ـ ان ممـــا يحفظ الخليفـــة فى قبره أن يولى على
المسلمين الرجل الصالح ٠
وصمت سليمان برهة ، ثم شـــاور رجاء فى ولاية
ابنـــه داود فشرد رجاء لحظـــة ، فهواه مع عمـــر بن
عبد العزيز ٠ ثم قال :
ـ انه غائب عنك بالقسطنطينية ، ولا تدرى أحى هو
أو ميت !
فقال سليمان فى ضعف :
ـ ما ترى ؟
وهم رجاء بن حيوة أن يقول « عمر بن عبد العزيز »
ولكنه آثر أن يتريث فقال :
ـ رأيك يا أمير المؤمنين ٠
ـ فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟
ولو تفرس سليمان فى وجه رجاء بن حيوة لرأى فيه
فرحة ٠ ان قلبه ولسانه معه ، فقال :
ـ أعلمه والله خيرا فاضـــلا مســـلما يحب الخير
وأهله ، ولكن أتخوف عليه اخوتك أن لا يرضوا بذلك ٠
ـ هم والله على ذلك ٠
وخاف رجاء بن حيوة أن تتسرب الفرصة من بين
أصابعه ، فأشار أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولى العهد
من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضى بذلك بنو مروان ،
وراح يكتب ما يمليه عليه الخليفة :
« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا كتاب من عبد الله
سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ٠ انى قد
وليته الخلافة من بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك

فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم » .

فقال له :

ـ اجمع أهل بيتي فمرهم فليبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوما ، فمن أبى منهم اضرب عنقه .

وجاء أهل بيت الخلافة الى حيث كان سليمان يرقد ، ودخل رجال منهم فسلموا فقال : بايعوا وأطيعوا من رأيت فيه .

فبايعوا لذلك رجلا رجلا ، فلما تفرقوا جاء عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيوة فقال له :

ـ أنشدك وحرمتي ومودتي الا أعلمتني ان كان كتب الي ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة .

ـ والله لا أخبرك حرفا واحدا .

ولقيه هشام بن عبد الملك فقال :

ـ يا رجاء ان لي بك حرمة ومودة قديمة ، فأخبرني هذا الأمر ان كان الي علمت ، وان كان لغيري فما مثلي قصر به عن هذا .

ـ والله لا أخبرك حرفا واحدا مما أسره الى أمير المؤمنين .

ودخل عمر بن عبد العزيز على أمير المؤمنين فسلم عليه وقرأ في عينيه أشياء . ولكنه لا يستطيع أن يفاتحه فيما يخامره من شكوك ؛ انه يحس في أعماقه أن سليمان قد عهد اليه بالخلافة من بعده ، ولكنه لا يقدر على الافصاح عن شيء . وتذكر في تلك اللحظة

ما رآه في منامه ؛ انه رأى أول ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « انك ستلى أمر أمتى » · ورآه تارة أخرى يقول له : « اذا وليت فاعمل نحوا من عمل هذين » واذا بهما أبو بكر وعمر ·

وخرج عمر بن عبد العزيز من عند الخليفة وهو يضطرب ، وقد أهمه أن تؤول اليه الخلافة بمسئولياتها الجسام ·

ودخل رجاء بن حيوة على سليمان فاذا هو يموت ، فجعل اذا أخذته السكرة من سكرات الموت يحرفه الى القبلة ، فاذا أفاق يقول :

ـ لم يأن لذلك بعد يا رجاء ·

فلما كانت الثالثة قال :

ـ من الآن يا رجاء ان كنت تريد شيئا ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ·

وشخص ببصره الى السماء وقال :

ـ أسألك منقلبا كريما ·

فحرفه رجاء الى القبلة فمات ، فغطاه بقطيفة خضراء وأغلق الباب عليه ، فأرسل الى كعب بن حامد فجمع الناس فى مسجد دابق فقال :

ـ بايعوا لمن فى هذا الكتاب ·

فقالوا :

ـ قد بايعنا ·

ـ بايعوا ثانية ·

ففعلوا ، ثم قال رجاء :

ـ قوموا الى صاحبكم فقد مات ·

وقرأ الكتاب عليهم ، فلما انتهى الى ذكر عمـــر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بنى مروان • فلما قرأ :

ـ وأن هشام بن عبد الملك بعده ••

تراجعوا بعض الشيء ، ونادى هشام :

ـ لا نبايعه أبدا •

فقال رجاء :

ـ أضرب عنقك والله ، قم فبايع •

ونهض الناس الى عمـــر بن عبد العزيز وهو فى مؤخر المسجد فى ذهوله • ولم يفق من دهشته الا على صوت رجاء وهو يقول :

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته• قم الى المنبر •

ـ أنشدك الله يا رجاء !

ـ أنشدك الله أن يضطرب بالناس حبل •

ولم تحمله رجلاه ، انه مشفق على نفسه من هـــذه المسئولية فأخذوه وأصعدوه على المنبر •

فسكت حينا •

فقال رجاء بن حيوة :

ـ ألا تقوموا الى أمير المؤمنين فتبايعوه ؟ !

فنهض القوم فبايعوه • ثم أتى هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول :

ـ انا لله وانا اليه راجعون •

فقال عمر :

ـ نعم انا لله وانا اليـــه راجعون • الذى صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر •

ثم قام وخطب الناس فكان مما قال فى خطبته :

ـ أيها الناس ، انى لست بمبتدع ولكنى متبع · وان من حولكم من الأمصـــار ان أطاعــوا كما أطعتم فأنا واليكم ، وان هم أبوا فلست لكم بوال ·

وتمت البيعة لعمر بن عبد العزيز أشج بنى أمية ، لتتحقق نبوءة جده العظيم عمر بن الخطاب ·

أخذوا فى جهـاز سليمان بن عبد الملك فلم يفرغوا منه حتى وقت المغرب ، فصلى عمـر بالناس صـلاة المغرب - ثم صلى على سليمان ودفن ·

ولما خرج عمر من القبر أقبل ركب الخليفة ، ترأى خيلا وبراذين وبغالا مطهمة لكل دابة سائس ، فقال :

- ما هذا ؟

- مواكب الخلافة يركبها الخليفة أول ما يلى ·

- دابتى أوفق ·

والتفت الى غلامه وقال :

- يا مزاحم ، ضم هذه الى بيت مال المسلمين ·

وفغر من حوله أفواههم دهشة · انه أرسل الدوأب لتباع ويضم ثمنها الى بيت المال وما فعل ذلك خليفة من قبل ، انه طراز جديد من الخلفاء فيه زهد لم يعرفه خليفة قبله ·

وانقلب عمـر بن عبد العزيز الى أهله وهو مغتم مهموم ، فقال له مزاحم :

- ما لك هكذا مغتما مهموما وليس هذا بوقت هذا ؟

ـ ويحك ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة الا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه اليه ، كتب الىّ فى ذلك أو لم يكتب ، طلبه منى أو لم يطلب .

وأقبلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك الجميلة الشريفة بنت الخليفة وزوجة الخليفة وراحت تهنئه ، فلم يقابلها بالفرح والعناق بل خيرها أن تقوم معه على أنه لا فراغ له اليها ، وبين أن تلحق بأهلها . فبكت وبكى جواريها لبكائها فسمعت ضجة فى داره . ثم اختارت مكانها معه على كل حال .

وانصرف عمر مع الناس من مرج دابق حتى أتوا دمشق فمالوا به نحو دار الخلافة ، واذا بالسرادقات قد أقيمت وقد بنيت له حجرات ، فالتفت الى مزاحم وقال :

ـ يا مزاحم ، ضم هذه الى بيت مال المسلمين .

وبلغوا دار الخلافة فقالوا له :

ـ ألا تنزل ؟

ـ لا أنزل الا فى منزلى حتى تفرغ دار أبى أيوب .

كانت الدار الخضراء دار الخلافة ، فلم يقبل أن ينزل بها الا بعد أن يغادرها أهل بيت الخليفة السابق ، فاستحسن الناس ذلك منه .

وفى داره استدعى بالكاتب فجعل يملى عليه نسخة الكتاب الذى بايع عليه الأمصار ، فأحس رجاء بن حيوة راحة ، فما رأى أفصح منه .

وانطلق الى الدار الخضراء دار الخلافة فاستقبله أولاد سليمان وقالوا له :

ـ هذا لك وهذا لنا .

ـ وما هذا .. وما هذا ؟

ـ هذا ما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يمس فهو للخليفة من بعده ، هو لك .

ـ ما هذا لى ولا لسليمان ولا لكم ، ولكن يا مزاحم ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين .

ودخل عليه سالم السدى وكان من خاصته ، فقال له عمر :

ـ أسرك ما وليت أم ساءك ؟

ـ سرنى للناس وساءنى لك .

ـ انى أخاف أن أكون أوبقت نفسى .

ـ ما أحسن حالك ان كنت تخاف . انى أخاف عليك أن لا تخاف .

ـ عظنى .

ـ أبونا آدم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة .

وكتب طاووس الى عمر : « ان أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير » .

فقال عمر :

ـ كفى بها موعظة .

وقام عمر يخطب الناس قال :

ـ أيها الناس ، ان لى نفسا تواقة لا تعطى شيئا الا تاقت الى ما هو أعلى منه ، وانى لما أعطيت الخلافة

تاقت نفسى الى ما هو أعلى منها وهى الجنة ، فأعينونى عليها يرحمكم الله ٠

أيها النـــاس من صحبنـــا فليصحبنا بخمس والا فليفارقنا : يرفع الينـــا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى اليه ، ولا يغتاب عندنا أحدا ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه ٠

وجاء كتاب من سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فراح يقرؤه : « ٠٠ وانه كان قبلك قوم عملوا ما عملوا، وأماتوا ما أماتوا من الحق ، وأحيــوا ما أحيوا من الباطل ، حتى ولد فيه رجال ونشأوا فيـــه وظنوا أنه السنة ، ولم يسدوا على العباد باب رخاء الا فتح الله عليهم باب بلاء ، فان استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء فانك لا تفتح منها بابا الا سد عليك باب بلاء » ٠

ووفد الشعراء الى عمر بن عبد العزيز فمكثوا ببابه أياما لا يؤذن لهم ولا يلتفت اليهم ، فساءهم ذلك وهموا بالرجوع الى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير :

يا أيها الرجل المرخى عمـــامته
هــذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شــيئا ٠ فمر بهم عدى بن أرطأة فقال له جرير منشدا :

يا أيها الراكب المرخى مطيتـــه
هــذا زمانك انى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنـــا ان كنت لاقيـــه
انى لدى الباب كالمصفود فى قرن
لا تنس حاجتنـــا لاقيت مغفـــرة
قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

ودخل عدى على عمر بن عبد العزيز فقال :

ـ يا أمـــير المؤمنـــين الشعراء ببـــابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ٠

ـ ويحك يا عدى ما لى وللشعراء ؟

ـ يا أمير المؤمنين ان رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم قد كان يسمع الشعر ويجزى عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة فأعطاه حلة ٠

ـ أتروى منها شيئا ؟

ـ نعم :

رأيتك يا خـــير البرية كلهـــا
نشرت كتابا جاء بالحق معلمـــا
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا
عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمرا مدلســـا
وأطفأت بالقـــرآن نارا تضرما
فمن مبـــلغ عنى النبى محمـــدا
وكل امرىء يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه
وكان قديمـــا ركنه قد تهـــدما
تعالى علوا فوق عرش الهنـــا
وكان مكان الله أعـــلا وأعظمـــا

ـ من بالباب منهم ؟
ـ عمر بن أبى ربيعة ٠
ـ أليس هو الذى يقول :
ثم نبهتها فهبت كعابا
طفلة ما تبين رجع الكلام
ساعة ثم أنها بعد قالت
ويلنا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسرى
تتخطى الى رءوس النيام
ما تجشمت ما تريد من الأمر
ولا جئت طارقا لخصام
فلو كان عدو الله اذ فجر كتم وستر على نفسه ٠
لا يدخل والله أبدا ٠ فمن بالباب سواه ؟
ـ همام بن غالب (الفرزدق) ٠
ـ أوليس هو الذى يقول فى شعره :
هما دليانى من ثمانين قامة
كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا
أحى يرجى أم قتيل نحاذره
لا يطأ والله بساطنا وهو كاذب ٠ فمن سواه بالباب ؟
ـ الأخطل ٠
ـ أوليس هو الذى يقول :
ولست بصائم رمضان طوعا
ولست بآكل لحم الأضاحى

ولستَ بزاجـر عيسـا بكورا
الى بطحـاء مكة للنجـاح
ولست بزائر بيتـا بعيـدا
بمكة أبتغى فيـه صـلاحى
ولست بقـائم كالعـير أدعـو
قبيل الصبح حى على الفـلاح
ولكنى سـأشربها شمـولا
وأسجد عنـد تبليج الصـباح

والله لا يدخل على وهو كافر أبدا • فهـل بالبـاب سوى من ذكرت ؟

ــ نعم الأحوص •

ــ أليس هو الذى يقول :

الله بينى وبين سـيدها يعزمنى بهـا وأتبعه

فما هو دون من ذكرت ، فمن ههنا غيره ؟

ــ جميل بن معمر •

ــ الذى يقول :

ألا ليتنا نحيـا جميعا وان نمت
يوافق فى الموتى خريجى خريجها
فما أنا فى طول الحيـاة براغب
اذا قيل قد سوى عليها صفيحها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بذلك صالحا ويتوب ، والله لا يدخل على أبدا • فهل بالباب أحد سوى ذلك ؟

ــ جرير •

ــ أما أنه الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فارجعى بسـلام

فان كان ولا بد فأذن لجرير .

فأذن عدى بن أرطأة لجرير ، فدخل على عمر وهو يقول :

ان الذى بعث النبى محمـدا
جعـل الخلافة للامام العـادل
وسـع الخـلائق عدله ووفاؤه
حتى ارعوى وأقام ميـل المائل
انى لأرجو منك خـيرا عاجـلا
والنفس مولعـة بحب العـاجل

ـ اتق الله يا جرير فيما تقول .

واستأذن جرير عمـر بن عبد العزيز فى الانشـاد بمدحه فلم يأذن له ولم ينهه ، فأنشـده قصيدة طويلة يمدحه بها ، فقال له :

ـ ويحك يا جرير ألا أرى لك فيما ههنا حقا .

ـ وانى مسكين وابن سبيل .

ـ وانما ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك الا ثلاثمائة درهم ، أخذت أم عبد الله مائة وابنهـا مائة وقد بقيت مائة .

فأمر له بهـا ، فخرج جرير على الشعراء فالتفوا به وقالوا :

ـ ما وراءك يا جرير ؟

ـ ما يسوءكم ، خرجت من عنـد أمير المؤمنين وهو يعطى الفقراء ويمنع الشعراء ، وانى عنه لراض .

ثم أنشد يقول :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه
وقد كان شيطانى من الجن راقيا

وتهللت أسارير الفقهاء والزهاد وقالوا :

ـ ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله ·

وبعث الى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم :

ـ قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بى ، فما عندكم؟

فقال محمد بن كعب :

ـ اجعل الشيخ أبا ، والشاب أخا ، والصغير ولدا ، وبر أباك ، وصل أخاك ، وتعطف على ولدك ·

وقال رجاء :

ـ ارض للنــاس ما ترضى لنفســك ، وما كرهت أن يؤتى اليك فلا تأته اليهم ، واعلم أنك أول خليفة تموت ·

وقال سالم :

ـ اجعل الأمر واحدا ، وصم فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل آخر فطرك فيه الموت ·

فقال عمر :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ·

- ١٤ -

راح عمر بن عبد العزيز يفكر فيما عنده من أموال· انه ورث عن أبيـه ضـياعا وأموالا ، وانه ليظن أن ما جمعه أبوه وآل بيته لم يكن بالطرق المشروعة ، فعزم على التخلص مما ورثه ورده على من أخذ منه ، فقال لغلامه :

ـ يا مزاحم ، ان هؤلاء القوم أعطونا عطايا والله ما كان لهم أن يعطونا اياها وما كان لنا أن نقبلهـا ، وان ذلك قد صار الى وليس على فيه دون الله محاسب ·

ـ يا أمير المؤمنين هل تدرى كم ولدك ؟

ـ أكلهم الى الله ·

وأمر مناديه أن ينادى الصـلاة جامعة · ثم خرج الى المسجد والنـاس مجتمعة وقال لهم ، ان أهله قد أقطعوه ما لم يكن له أن يأخذ ولم يكن لهم أن يعطوه ، وأخبرهم أنه قد بدأ بنفسه وأهل بيته ، وضم ما تحت يده الى بيت مال المسلمين ·

وخرج عمر عما تحت يده من قطائع وضياع فحرق سجلاته ، ولم يستشعر راحة البال فقد بقيت مزرعتا

خيبر والسويداء فجمع رءوس الناس فخطبهم فقال :

ـ ان فدك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث أراد الله ، ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ، ثم ان مروان تقطعها فحصل لى منها نصيب ووهبنى الوليـد وسليمان نصيبهما . ولم يكن من مالى شيء أرده أغلى منها وقد رددتها فى بيت المال على ما كانت عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحرق سجلات خيبر وأعادها فيئا كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبقى مزرعة السويداء اذ كان قد استنبطها بعطائه .

ودخلت عليه عمته فاطمة بنت مروان تعاتبـه على قطع ما كان يجريه عليها أسلافه من عطايا ، فوجدت بين يديه أقراصـا وشـيئا من ملح وزيت وهو يتعشى فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين أتيت بحاجة لى ، ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتى .

ـ ما ذاك يا عمة ؟

ـ لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا .

ـ ليس عندى يا عمة . لو كان عندى لفعلت .

ـ يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يجرى على كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادنى ، ثم كان أخوك سليمان فزادنى ، ثم وليت أنت فقطعته عنى .

ـ يا عمة ان عمى عبد الملك وأخى الوليـد وأخى سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لى فأعطيكه ولكنى أعطيك من مالى ان شئت .

ـ وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟
ـ عطائى مائة دينار ، فهل لك ؟
كان عمر يتقاضى أربعين ألفا قبل أن تصير اليه الخلافة ، فلما أصبح خليفة خفض عطاءه الى مائة . فقالت عمته :
ـ وما يبلغ منى عطاؤك ؟
ـ فلست أملك غيره يا عمة .
وقطع الجوائز والمرتبات الباهظة التى كانت تصرف لبنى أمية فى عهود الخلفاء السابقين ، وأجرى عليهم مرتبات تتناسب مع ما يحصل عليه سائر المسلمين ، ولم يكتف بذلك بل أمر بأموال جماعة من بنى أمية فردها الى بيت المال وسماها أموال المظالم ، فاستشفعوا اليه بالناس وتوسلوا اليه بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجح فيه شىء ، وقال لهم :
ـ لتدعنى والا ذهبت الى مكة فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به !
وصمتوا ، فالتفت اليهم وقال :
ـ والله لو أقمت فيكم خمسين سنة ما أقمت فيكم الا ما أريد من العدل .
وخرجوا من عنده يتلاومون، ليتهم منعوا عبدالعزيز ابن مروان من الزواج من حفيدة عمر بن الخطاب فقد جاءهم بابن من بنى أمية يسير فيهم سيرة عمر .
وفرح الناس بعمر ، وقال العلماء انه هو الذى عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال : « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها

أمر دينها » . فقد كان على رأس المائة الأولى وكان يجتهد فى تنفيذ الحق وأن يكون كتاب الله دستور حياتهم .

ووفد عليه وفود العرب ووفد عليه وفد الحجاز ، فاختار الوفد غلاما منهم فقدموه عليهم ليبدأ بالكلام ، فلما ابتدأ الغلام بالكلام وهو أصغر القوم سنا قال عمر :

ـ مهلا يا غلام ليتكلم من هو أسن منك .

ـ مهلا يا أمير المؤمنين ، انما المرء بأصغريه لسانه وقلبه ، فاذا منح الله العبد لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استجاد له الحلية ، يا أمير المؤمنين ولو كان التقدم بالسن لكان فى هذه الأمة من هو أسن منك .

ـ تكلم يا غلام .

ـ نعم يا أمير المؤمنين : نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة ، قدمنا اليك من بلدنا نحمد الله الذى من بك علينا لم يخرجنا اليك رغبة ولا رهبة . أما الرغبة فقد أتانا منك الى بلدنا ، وأما الرهبة فقد آمننا الله بعدلك من جورك .

ـ عظنا يا غلام وأوجز .

ـ نعم يا أمير المؤمنين . ان أناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وحسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك .

فنظر عمر فى سن الغلام فاذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالما
وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده
صغير اذا التفت عليه المحافل

ودخل عمر بن عبد العزيز الجامع الأموى بدمشق وراح يدير عينيه فى المكان وهو يحس ضيقا ، فما فيه من زخارف وتهاويل وفسيفساء وذهب يشغل العابد عن عبادته . أين هذا الترف المصنوع من تلك البساطة الآسرة التى يتسم بها مسجد الرسول . انه أيام كان يؤم مسجد الرسول فى المدينة قبل أن يأمر عبد الملك بن مروان بعمارته ، كان يسعد بالأنوار الربانية التى تغشى المسجد ، أما هنا فى المسجد الأموى الكبير فهو لا يشعر الا بالاختناق . لكأنما قبته وجدرانه توشك أن تنقض عليه وتكتم أنفاسه .

وراح يتذكر ما كان من أمر القبة ، أراد الوليد أن يجعل بيضتها من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن هذا البناء ، فقال له المعمار :

ـ انك لا تقدر على ذلك .

فضربه خمسين سوطا وقال له :

ـ ويلك ! أنا لا أقدر على ذلك وتزعم أنى أعجز عنه وخراج الأرض وأموالها تجىء الى .

ـ نعم أنا أبين لك ذلك .

ـ فبين ذلك .

ـ اضرب لبنة واحدة من الذهب وقس عليها ما تريد هذه القبة من ذلك .

فأمر الوليد فأحضر من الذهب ما ضرب منـه لبنة فاذا هى قد دخلها ألوف من الذهب ، فقال المعمار :

ـ يا أمير المؤمنين انا نريد مثل هذه اللبنة كذا وكذا ألف لبنة ، فان كان عندك ما يكفى من ذلك عملناه ٠

فأطرق الوليد ثم قال :

ـ انى لا أعجز عما قلت ولكن فيه اسرافا وضياع مال فى غير وجهه اللائق به ، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة فى سبيل الله وردا على ضعفاء المسلمين خير من ذلك ٠

وراح عمر بن عبد العزيز يردد فى نفسه : « فيـه اسراف ٠٠ فيه اسراف » ٠

ووقع بصر ابن عبدالعزيز على العمودين الأخضرين اللذين اشتراهما الوليد من حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينـار ، وهمس هامس فى نفسه : « هـذا اسراف » ٠ ومد بصره الى فسيفساء كانت على هيئـة الكرم مؤلفـة من قطع صغيرة من الزجاج المربع مبطن بالذهب فهـز رأسـه أسى ؛ ان الوليد أنفق على هذه الكرمة سبعين ألف دينار ٠

أين بساطة الاسلام ؟ لماذا كل هذا الاسراف ؟ أنفق الوليد أربعمائة صندوق من الذهب فى كل صـندوق أربعة آلاف دينار ؛ فلو أنفق ذلك على المحتاجين لما كان فقير واحد فى مملكته ٠

وتذكر عمـر بن عبد العزيز ما قاله الوليـد لأهل دمشق : « يا أهل دمشـق انكم تفخرون على النـاس بأربع : بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت

أن أزيدكم خامسة وهى هذا الجامع » • كان الفخر كل الفخر بماديات لا ترضى الخليفة الزاهد الذى يرى أن بناء النفوس أحق من اقامة البنايات ، فعزم على أن يجرد جامع دمشق العتيد مما فيه من ذهب ويقلع السلاسل والرخام والفسيفساء ويرد ذلك كله الى بيت المال ويجعل مكان ذلك كله طينا ، فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم اليه • وقال خالد بن عبد الله القسرى :

ـ أنا أكلمه لكم •

كانت أم خالد نصرانية رومية ولكنه كان رجلا صالحا ، فلما دخل أشراف القوم على الخليفة يحاورونه قال خالد :

ـ يا أمير المؤمنين بلغنا عنك أنك تريد أن تجرد المسجد مما فيه •

ـ نعم •

ـ ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين •

ـ ولم يابن الكافرة ؟

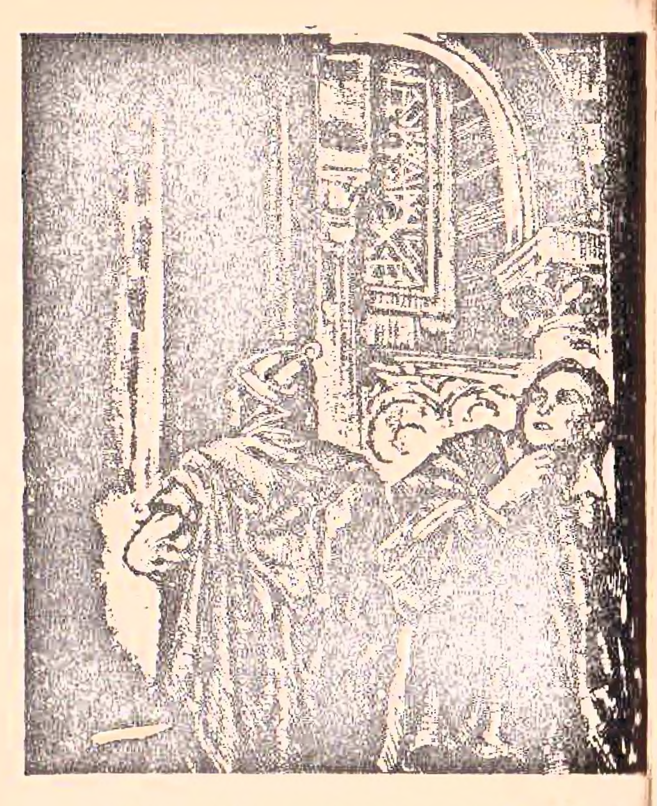
ـ يا أمير المؤمنين ان كانت كافرة فقد ولدت رجلا مؤمنا •

ـ صدقت •

واستحيا عمر ، ثم قال له خالد :

ـ يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام انما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم وليس هو لبيت المال •

فأطرق الخليفة مفكرا • انه لا يحب أن يحمل الى



فلما رأوا المسجد .. رأوا ما بهر عقولهم وقالوا :
ما كنا نظن أن يبنى المسلمون مثل هـذا البناء

بيت المـــال الا مالا طيبا ، وفيما هو فى تفكيره قـدم جماعة من بلاد الروم رسلا من عند ملكهم ، فلما رأوا المسجد رأوا ما بهر عقولهم وقالوا :

ـ ما كنا نظن أن يبنى المسلمون مثل هذا البناء ٠

وبلغ ذلك عمر بن عبد العــزيز فراح يفكر فى أمر المسجد ، فوجد أنه لم يبن من بيت مال المسلمين وأنه يغيظ الرومان فقال :

ـ دعوه ٠

وأرسل الى سالم بن عبد الله بن عمر وقال له :

ـ اكتب لى سيرة عمر حتى أعمل بها ٠

ـ انك لا تستطيع ذلك ٠

ـ ولم ؟

ـ انك ان عملت بها كنت أفضل من عمر ، لأنه كان يجـد على الخير أعوانا وأنت لا تجـد من يعينك على الخير ٠

- ١٥ -

ولى الحجاج بن أبى يوسف الثقفى المهلب بن أبى صفرة على خراسان فى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان المغيرة بن المهلب خليفة أبيه على خراسان فمات المغيرة والمهلب فى عسكره ، فأراد يزيد بن المهلب أن يبلغ أباه أن أخاه الحبيب قد مات فأمر النساء فصرخن، فقال المهلب :

ـ ما هذا ؟

ـ مات المغيرة •

ـ انا لله وانا اليه راجعون •

وجزع حتى ظهر جزعه عليه فلامه بعض خاصته ، فدعا يزيد ووجّهه الى حيث كان أخوه المغيرة ، فجعل يوجهه على ما يعمل ودموعه تنحدر على لحيته •

قفل المهلب بن أبى صفرة من حربه وأراد أن يعود الى حيث استقر ابنه يزيد فجاءه الموت وهو فى الطريق ، فدعا حبيبا ابنه ومن حضره من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال : -

ـ أترونكم كاسريها مجتمعة ؟

ـ لا ٠

ـ أفترونكم كاسريها متفرقة ؟

ـ نعم ٠

ـ فهكذا الجماعة ٠ فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فان صلة الرحم تنسيء فى الأجل وتثرى المال وتكثر العدد ٠ وأنهاكم عن القطيعة ، فان القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة ٠ فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، وتباروا تجتمع أموركم ٠ وعليكم بالطاعة والجماعة ، وليكن فعالكم أفضل من قولكم ٠٠ فانى أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه ٠ واتقوا الجواب وزلة اللسان ، فان الرجل تزل قدمه فيتعثر من زلته ويزل لسانه فيهلك ٠

اعرفوا لمن يغشاكم حقه، فكفى بغدو الرجل ورواحه اليكم تذكرة له ، وآثروا الجود على البخل ، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف ، فان الرجل من العرب يلقى العدو فيموت دونك فكيف القطيعة عنده ؟ عليكم فى الحرب بالأناة والمكيدة ، فانها تقع فى الحرب من الشجاعة ، واذا كان اللقاء نزل القضاء ٠ فان أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل : أتى الأمر من وجهه ثم ظفر وحمد ٠ وان لم يظفر بعد الأناة قيل : ما فرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب ٠

وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وأدب الصالحين ٠ واياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم ٠ وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت « جميعا » على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد ٠

وكتب يزيد بن المهلب الى الخليفة عبد الملك بوفاة المهلب واستخلافه اياه ، فأمَّره الحجاج فأصبح يزيد ابن المهلب على خراسان ·

وولى الحجاج قتيبة بن مسلم على الرى فكانت الحروب ناشبة بين يزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم وبين خوارج العراق ، وكانت دماء المسلمين تروى الأرض فكان أن بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام عمر بن عبد العزيز بالخلافة وأوصاه أن يكف عن الدم ·

وراح قتيبة يفتح الأمصار فقال فيه الحجاج :

ـ بعثت قتيبة فتى غرا فما زدته ذراعا الا زادنى باعا ·

وغضب الحجاج على يزيد بن المهلب فكتب الى عبدالملك بن مروان بذم يزيد وآل المهلب ويتهمه بممالأته لآل الزبير ، فكتب اليه عبد الملك : « انى لا أرى نقصا بآل المهلب طاعتهم آل الزبير ، بل أراه وفاء منهم لهم ، وان وفاءهم لهم يدعو الى الوفاء لى » · فكتب اليه الحجاج يخوفه غدرهم فكتب اليه عبد الملك : « قد اكثرت فى يزيد وآل المهلب فسمّ لى رجلا يصلح لخراسان » · فسمى قتيبة بن مسلم ·

وكتب الحجاج الى يزيد بن المهلب : « استخلف واقدم » · فلما قدم عليه حبسه وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان وعبد الملك بن المهلب عن شرطته · وجاء قتيبة الى خراسان ليفتح بخارى وما حولها · ومات عبد الملك بن مروان وتولى الخلافة الوليد بن عبدالملك·

وخرج الحجاج لقتال الأكراد فخرج يزيد بن المهلب وبأخويه المفضل وعبد الملك فجعلهم فى عسكره وجعل عليهم هيئة الخنـدق ، وجعلهم فى فسطاط قريبا من حجرته وجعل عليهم حرسا من أهل الشام ، وأغرمهم ستة آلاف ألف وأخـذ يعذبهم • وكان يزيد بن المهلب يصبر صبرا جميلا وكان الحجاج يغيظه ذلك • فقيـل له : انه رمى بنشابة فثبت نصلها فى ساقه فهو لا يمسها شىء الا صاح ، فان حركته أدنى شىء سمعت صوته •

كانت هند بنت المهلب أخت يزيد زوجـة للحجاج ، فلما أمر الحجاج أن يعذب يزيد وأن يدهق ساقه اربد وجه أخته وأرهفت حواسها وراحت تصيخ السمع الى الفسطاط الذى فيه اخوتها •

وسمعت ـ عند صياح يزيد ـ أنه يعذب وأن ساقه المهيضة تدهق فصـاحت وناحت ، وضـايق الحجاج صياحها فطلقها •

وبعث آل المهلب الذين حبسهم الحجاج الى مروان ابن المهلب وهو بالبصرة يأمرونه أن يضمر لهم الخيل وأن يأتى الى معسكر الحجاج ليرى الناس أنه انمـا يريد بيعها ، ويعرضها على البيع ويغالى فى ثمنها لئلا تشترى فتكون لهم عدة ان هم قـدروا على أن ينجوا مما هم فيه •

وجاء مروان بن المهلب بالخيل فلما علم يزيد بمقدم أخيه أمر الحراس أن يصنعوا طعاما كثيرا فأكلوا ، وأمر بشراب فشربوا ، ولعب الشراب برءوس الحرس فلبس يزيد ثياب طباخه ووضع على لحيته لحية بيضاء وخرج فرآه بعض الحرس فقال :

ـ كأن هذه مشية يزيد ٠

فجاء حتى استعرض وجهه ليلا فرأى بياض اللحية، فانصرف عنه فقال :

ـ هذا شيخ ٠

وخرج أخوه المفضل على أثره ولم يفطن أحد لخروجه ، وانسل بعض آل بيت المهلب فامتطوا الجياد وراحوا ينهبون الأرض حتى جاءوا سفنهم ٠ فلما انتهوا الى السفن أبطأ عليهم عبد الملك بن المهلب فقال يزيد للمفضل :

ـ اركب بنا فانه لاحق ٠

فقال المفضل :

ـ لا والله لا أبرح حتى يجيء ولو رجعت الى السجن

فأقام يزيد حتى جاء عبد الملك وركبوا عند ذلك السفن فساروا ليلتهم حتى أصبحوا ، ولما أصبح الحرس علموا بذهابهم فرفع ذلك الى الحجاج ففزع له الحجاج وذهب همه أنهم ذهبوا قبل خراسان ، وبعث البريد الى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ويأمره أن يستعد لهم ٠ وبعث أمراء الثغور والكور أن يرصدوهم ويستعدوا لهم ، وكتب الى الوليد بن عبد الملك يخبره بهربهم وأنه لا يراهم أرادوا الا خراسان ٠

وخاف الحجاج أن يجمع آل المهلب أنصارهم في خراسان وأن يقاتلوا بنى أمية ، ولكن العيون جاءت اليه تخبره أنهم ركبوا البحر ثم ركبوا الخيول منطلقين الى فلسطين ٠

كان سليمان بن عبد الملك واليا على فلسطين ، وكان وهيب بن عبد الرحمن الأزدى كريما عليه ، فجاء وهيب حتى نزل على سليمان فقال :

ـ هذا يزيد بن المهلب واخوته فى منزلى وقد أتوك هرابا من الحجاج متعوذين بك ·

ـ فأتنى بهم فهم آمنون لا يوصـــل اليهم أبدا وأنا حى ·

وكتب الحجاج أن آل مهلب خانوا مال الله وهربوا منى ولحقوا بسليمان · فلما بلغ الخليفة الوليـــد بن عبد الملك مكان يزيد عند أخيـــه اطمأن بعض الشىء ، ولكنه طار غضبا للمال الذى ذهب به · وكتب سليمان الى الوليد أن يزيد بن المهلب عندى وقد أمنته ، وانما عليه ثلاثة آلاف ألف كان الحجاج أغرمهم ستة آلاف ألف وبقى ثلاثة آلاف فهى علىّ ·

ودارت الكتب بين الأخوين ·

ـ لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به الىّ ·

ـ لئن أنا بعثت به اليك لأجيئن معه ، فأنشدك الله ألا تفضحنى ولا تخفرنى ·

ـ والله لئن جئتنى لا أؤمنه ·

وكان يزيد بن المهلب يقـــرأ الكتب المتبـــادلة بين الخليفة الوليد وأخيه سليمان ، فقال يزيد لسليمان :

ـ ابعثنى اليه فوالله ما أحب أن أوقع بينـــك وبينـــه عداوة وحربا ولا أن يتشاءم بى الناس · ابعث اليه بى وأرسل معى ابنك واكتب اليه بألطف ما قدرت عليه ·

ان الوليد يطلب من أخيـــه أن يبعث يزيد بن المهلب

فى وثاق ، فرأى أن ينفذ أمر أمير المؤمنين وأن يصون فى نفس الوقت كرامته التى كادت أن تهدر • فالتفت الى ابنه أيوب الذى عزم على أن يبعثه مع يزيد وقال :

ـ اذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد فى سلسلة ، ثم ادخلوا جميعا على الوليد •

وانطلق أيوب بن سليمان بيزيد بن المهلب الى الشام واتجها الى بيت الخلافة ، وطلب أيوب الاذن بالدخول، فلما أذن له دخل هو ويزيد على الخليفة وقد قيدا فى سلسلة واحدة ، فلما رأى الوليد يزيد وابن أخيه فى سلسلة واحدة قال :

ـ والله لقد بلغنا من سليمان •

ودفع أيوب كتاب أبيه الى عمه وقال :

ـ يا أمير المؤمنين نفسى فداؤك • لا تخفر ذمة أبى وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منا رجاء السلامة فى جوارنا لمكاننا منك ، ولا تذل من رجا العز فى الانقطاع الينا لعزنا بك •

وقرأ الكتاب : « لعبد الله بن الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك • أما بعد يا أمير المؤمنين ، فوالله ان كنت لأظن لو استجار بى عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته انك لا تذل جارى ولا تخفر جوارى ، بل لم أجر الا سامعا مطيعا حسن البلاء والأثر فى الاسلام هو وأبوه وأهل بيته • وقد بعثت به اليك فان كنت انما تريد قطيعتى والاخفار لذمتى والابلاغ فى مساوتى فقد قدرت ان أنت فعلت ، وأنا أعيذك بالله من احتراد قطيعتى وانتهاك حرمتى وترك برى وصلتى •

فوالله يا أمير المؤمنين لا تدرى ما بقائى وبقاؤك ولا متى يفـــرق الموت بينى وبينـــك ، فان استطاع أمير المؤمنين أدام الله سروره أن لا يأتى علينا أجل الوفاة الا وهو لى واصل ولحقى مؤد وعن مساءتى نازع ، فليفعل ، والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشىء من أمر الدنيا بعد تقوى الله فيها بأسر منى برضاك وسرورك ، وان رضـــاك ما ألتمس به رضـــوان الله . فان كنت يا أمير المؤمنين تريد يوما من الدهر مسرتى وصلتى وكرامتى واعظـــام حقى فتجـــاوز لى عن يزيد ، وكل ما طلبته به فهو علىّ » .

وأطرق الوليد مليا ثم قال :

ــ لقد أشفقتنا على سليمان .

ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه . وتكلم يزيد فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ــ يا أمير المؤمنين ان بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن نسى ذلك فلسنا ناسييه ، ومن يكفر فلسنا كافريه . وقد كان من بلائنا أهل البيت فى طاعتكم والطعن فى أعين أعدائكم فى المواطن العظام فى المشارق والمغارب ما ان المنة علينا فيه عظيمة .

فقال له :

ــ اجلس .

فجلس فأمنـــه وكف عنـــه ورجع الى ســـليمان بن عبـــد الملك . ومات الحجاج بن يوســـف الثقى وهلك الوليد بن عبد الملك وصـــار الأمر الى ســـليمان بن

- ١٦ -

دخلت فاطمة بنت عبد الملك على زوجها وهو جالس في مصلاه واضعا خده على يده ودموعه تسيل على خده فقالت :

- مالك ؟

- ويحك يا فاطمة ، وقد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعارى المجهود واليتيم المكسور والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور والغريب والأسير والشيخ الكبير وذى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة • وأن خصمى دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت أن لا تثبت لى حجة عند خصومته فرحمت نفسى فبكيت •

وأرادت فاطمة أن تسرى عنه ، انه يعجبه جارية من جواريها وقد سألها اياها اما بيعا أو هبة فكانت تأبى عليه ذلك • انه الآن فى حاجة الى من تنسيه أعباء الخلافة، فألبستها وطيبتها وأهدتها اليه ووهبتها

عبد الملك فعزل يزيد بن أبى مسلم عن العــراق وأمر
عليه يزيد بن المهلب . ثم قتــل قتيبة بن مســلم فولى
سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب خراسان .

وتوفى سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين
بعد سنتين وثمانية أشهر من خلافته واستخلف عمر بن
عبد العزيز فكتب الى يزيد بن المهلب : « أما بعد فان
سليمان كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه
واستخلفنى ، ويزيد بن عبد الملك من بعدى ان كان ،
وان الذى ولانى الله من ذلك وقدر لى ليس علىّ بهين ،
ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقاد أموال[1]
كان فى الذى أعطانى من ذلك ما قد بلغ بى أفضــل
ما بلغ بأحــد من خلقه ، وأنا أخاف فيمــا ابتليت به
حسابا شديدا ومسألة غليظة الا ما عافى الله ورحم ،
وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك » .

فلما قــدم الكتاب على يزيد بن المهلب ألقــاه الى
أبى عيينة فقرأه وشرد وراح يفكر فى هذا الزاهد الذى
أقبلت عليه الدنيا فاغرة فاها فاذا به يعرض عنها
ثم قال :

ـ لست من عماله .

قال له يزيد بن المهلب :

ـ ولم ؟

ـ ليس هذا كلام من مضى من أهل بيته وليس يريد
أن يسلك مسلكهم .

---

(١) اعتقد المال : جمعه .

له • ودخلت الجارية عليه يسبقها عبيرها ودنت منه فى دلال ، فأعرض عنها فراحت تداعبه فصدف عنها فقالت له :

ـ يا سيدى فأين ما كان يظهر لى من محبتك اياى ؟

ـ والله ان محبتك لباقية ، ولكن لا حاجة لى فى النساء فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك •

ثم سألها عن أهلها ومن أين جلبوها فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين ان أبى أصاب جناية ببلاد المغرب فصادره موسى بن نصير ، فأخذت فى الجناية وبعث بى الى الوليد فوهبنى الوليد الى أخته فاطمة زوجتك فأهدتنى اليك •

وغض عمر بن عبد العزيز الطرف وقال :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك •

ثم أمر بردها الى بلادها •

وتلفت عمر بن عبد العزيز فوجد الملل والنحل والمذاهب تموج فى الدولة الاسلامية من أقصاها الى أقصاها ، ففى بعض الدول التى كانت تدين بالنصرانية قبل الاسلام تسللت بعض العقائد الى الدين الحنيف ، كما حاولت الديانة المصرية القديمة أن تلبس لباس الاسلام ، وعرفت الزردشتية والمانوية والفلسفات الفارسية طريقها الى شريعة الله وامتزجت الديانات الهندية بالشريعة السمحة ، فاذا بدين الفطرة يرزح تحت ركام من المذاهب والعقائد والفلسفات ، واذا



يا سيدى .. فاين ما كان يظهر لى من محبتك اياى ؟

بالمسلمين يتفرقون شيعا واذا بالمناظرات تقام فى طول البلاد وعرضها بين أنصار مذهب ومذهب ورأى ورأى.

كانت الشيعة أقدم الفرق الاسلامية وقد ظهروا فى أواخر عصر عثمان بن عفان وقد ترعرع المذهب الشيعى فى عهد على كرم الله وجهه من شدة اعجاب الناس بالامام ، فلما جاء العصر الأموى ووقعت المظالم على العلويين كثر المتشيعون لأهل البيت وتبلور المذهب الشيعى فى القول بأن الأمامة ليست من مصالح العامة التى تفوض فى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبى اغفالها وتفويضها الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكفر . وان على بن أبى طالب كان هو الخليفة المختار من النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أفضل الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم .

وقد غالى بعضهم فرفع عليا كرم الله وجهه الى مرتبة النبوة واستحل بعضهم الخمر والميتة ونكاح المحارم ، وقال السبئية ان لكل نبى وصيا وأن على وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا برجعة محمد صلى الله عليه وسلم الى الحياة الدنيا وبألوهية الأئمة ، وذاعت بين الناس عقيدة الكيسانية وتقوم على أساس أن الامام شخص مقدس ، يبذلون له الطاعة ويثقون فى علمه ثقة مطلقة ويعتقدون فيه العصمة من الخطأ لأنه رمز العلم الالهى ؛ ويدينون كالسبئية برجعة الامام ويعتقدون أن الله سبحانه وتعالى

يغير ما يريد تبعا لتغير علمه وأنه يأمر بالشيء ثم يأمر بخلافه ويعتقدون أيضا بتناسخ الأرواح ٠

وكان الامامية يقولون ان امامة على ثبتت بالنص عليه بالذات من النبى صلى الله عليه وسلم نصا ظاهرا ويقينا صادقا من غير تعريض بالوصف ، بل اشارة بالعين ، وعلىّ نص على من بعده وهكذا كل امام ٠ وكانوا يقولون : وما كان فى الدين أمر أهم من تعيين الامام حتى تكون مفارقته على فراغ قلب من أمر الأمة ، فانه اذا بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق لا يجوز أن يفارق الأمة ويتركها هملا ٠

وقد اتفق الامامية على خلافة الحسن ثم الحسين بعد على واختلفوا بعد ذلك فى سوق الامامة ولم يثبتوا على رأى واحد بل انقسموا فرقا ٠

ورأى عمر بن عبد العزيز الخوارج يخرجون فى العراق ، انهم أشد الفرق الاسلامية دفاعا عن اعتقادهم وحماسة لأفكارهم وشدة فى تدينهم واندفاعا وتهورا فيما يدعون اليه وما يفكرون فيه ٠ وهم فى اندفاعهم وتهورهم يستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وظنوها دينا مقدسا لا يحيد عنه مؤمن ولا يخالف سبيله الا من مالت به نفسه الى البهتان ودفعته الى العصيان ٠ استرعت ألبابهم كلمة لا حكم الا لله ، فاتخذوها دينا ينادون به فى وجوه مخالفيهم ويقطعون به كل حديث ، فكانوا كلما رأوا عليا يتكلم قذفوه بهذه الكلمة ، قالوا له « لا حكم الا لله » فقال لهم : « كلمة حق يراد بها باطل » ، نعم انه لا حكم الا الله ولكن هؤلاء

يقولون لا امرة الا لله ، وانه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل فى امرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفىء ويقاتل به العدو وتؤمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوى ، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر .

وقد استهوتهم فكرة البراءة من عثمان وعلى والحكام الظالمين ، حتى احتلت أفهامهم واستولت على مداركهم استيلاء تاما وسدت عليهم كل طريق للوصول الى الحق ، فمن تبرأ من عثمان وعلى وطلحة والزبير والظالمين من بنى أمية سلكوه فى جمعهم وتسامحوا معه فى مبادىء أخرى من مبادئهم ربما كانت أشد أثرا والخلاف فيها يبعده عنهم أكثر من الخلاف فى هذا التبرؤ .

كانوا يرون أن الخليفة لا يكون الا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين ، لا يقوم به فريق دون فريق ولا جمع دون جمع ، ويستمر خليفة ما دام قائما بالعدل ، مقيما للشرع ، مبتعدا عن الخطأ والزيغ ، فان حاد وجب عزله أو قتله ، ولا يرون أن بيتا من بيوت العرب اختص بأن يكون الخليفة منه ، فليست الخلافة من قريش كما يقول غيرهم وليست لعربى دون أعجمى والجميع فيها سواء ، بل يفضلون أن يكون الخليفة غير قرشى ليسهل عزله أو قتله ، ان خالف الشرع وحاد عن الحق وجانب الصواب ، اذ لا تكون له عصبية تحميه ولا عشيرة تؤويه ولا ظل غير ظل الله يستظل به . والنجدات من الخوارج يرون أنه لا حاجة للناس الى

إمام قط وانما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم • فان رأوا أن ذلك لا يتم الا بامام يحملهم على الحق فأقاموه جاز ، فامامة الامام فى نظرهم ليست واجبة بايجاب الشرع ، بل جائزة ان اقتضتها المصلحة ودعت اليها الحاجة •

ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب ؛ ولم يفرقوا بين ذنب يرتكب عن قصد للسوء ونية للاثم ، وخطأ فى الرأى والاجتهاد يؤدى الى مخالفة وجه الصواب •

أثار الشيعة والخوارج مسألة مرتكب الكبيرة ، وادعوا كفره وشنوا الغارة على كل المسلمين • فقام أناس يقاومون هذا الاتجاه وأرجئوا الحكم على مرتكب الكبيرة • فأطلق عليهم اسم المرجئة وكانت البذرة الأولى لهذه الفرقة فى عهد الصحابة فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه ، فقد قال الناس فى عثمان وفى عماله وثاروا على حكمه • وقد انتهت الثورة بمقتل عثمان ، واندلعت الفتن بين المسلمين فامتنعت طائفة من الصحابة فى الخوض فيما خاض فيه المسلمون وتمسكوا بحديث أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم اذ قال : « ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى ، ألا فاذا نزلت أو وقعت فمن كان له ابل فليلحق بابله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه ، فقال له رجل : يا رسول الله ومن لم تكن له ابل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد الى سيفه ، فيدق على حده بحجر ، ثم لينج اذا استطاع النجاة » • وامتنعوا عن الخوض

فى الحـــروب التى وقعت بين المســلمين ولم يجهدوا أنفسهم بالبحث عن المحق فى الطائفتين المتقاتلتين ، وبهذا أرجئوا الحكم فى أى الطائفتين أحق وفوضوا أمورهم الى الله سبحانه وتعالى .

قال أناس : قتل عثمان مظلوما ، وقال أناس : كان على أولى بالحـــق وأصحابه ، فلم تتبرأ طائفــة من المسلمين لا من عثمان ولا من على ولم يلعنوهما ولم يشهدوا عليهما وأرجئوا أمرهمــا الى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما .

كانت هذه هى نشأة المرجئة الا أن المذهب تطــور حتى ان الفساق وجدوا الباب مفتوحا لمساويهم ، فبرأ صالحو المسلمين من المرجئة الذين أطمعوا الفســاق فى عفو الله .

وخاض المسلمون فى حديث القدر وقدرة الانسان بجوار ارادة الله سبحانه وتعالى وقدرته ، فزعم فريق أن الانسان لا يخلق أفعاله ، وليس له مما ينسب اليه من الأفعال شىء وقالوا : لمــا كان الله تعالى فعــالا ، لا يشــبهه شىء من خلقه وجب ألا يكون أحـــد فعالا غيره (١) .

رأى عمر بن عبــد العزيز أن الأمة الاســلامية قد افترقت الى فرق ونحل ومذاهب فرأى أن يعيد القطيع الضال الى الطريق وأن يلم شعث المسلمين فى مشارق

---

(١) للاستزادة فى معرفة الفرق يرجع الى كتاب « ابو حنيفة » للأستاذ محمد ابو زهرة ، والى « الملل والنحل » للشهرستانى .

الأرض ومغاربها ، فراح ينادى مذ أول يوم صار فيه أميرا للمؤمنين بالعودة الى كتاب الله وسنة رســوله وأخذ يجتهد ما وسعه الجهد فى أن يعيد شريعة الاسلام بيضاء نقية كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين الهادين المهديين .

- ١٧ -

دخل عمر لينام فراح يدعو :

ـ اللهم ان رجالا أطاعوك فيما أمرتهم وانتهوا عما نهيتهم . اللهم وان توفيقك اياهم كان قبل طاعتهم اياك فوفقني .

يا رب ! خلقتني وأمرتني ونهيتني ورغبتني فى الثواب وأمرتني به ، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه وسلطت على عدوا فأسكنته صدرى وأسكنته مجرى دمى . ان أهم بفاحشة شجعني وان أهم بطاعة ثبطني، لا يغفل ان غفلت ولا ينسى ان نسيت . ينصب لى فى الشهوات ويتعرض لى فى الشبهات . والا تصرف عنى كيده يستذلني . اللهم فاقهر سلطانه على بسلطانك عليه حتى تخسئه بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المعصومين بك ، ولا حول ولا قوة الا بك .

ونام الى جوار زوجه وما كاد يغمض عينيه حتى تذكر شيئا من أمر الآخرة فانتفض كما ينتفض العصفور فى الماء وجلس ، فطرحت عليه اللحاف وهى تقول :

- يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها ٠

وأصبح الصباح فراح الرجل الذى كان يلبس القميص الرقيق اللين جدا يقول ما أحسنه لولا خشونة فيه ، يلبس القميص الغليظ المرفوع ويقول ما أحسنه لولا لينه ٠

وسار عمر ليرد المظالم وهو خاشع متواضع لله ، لم يعد يتبختر فى مشيته كما كان يفعل فقد أقلع عن مشيته العمرية التى اشتهر بها بل كان يفكر فيما يحمل من مسئوليات جسام تكاد تنقض ظهره ٠ وتذكر ذلك اليوم الذى ولى فيه الخلافة اذ جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء فقال له:

- انما أنا رجل من المسلمين ٠

ورأى نفسه وهو يسير وهم معه حتى دخل المسجد ، وراح يذكر خطبته التى خطبها :

- أيها الناس انى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ولم أطلبه ولا طلبته ، ولا مشورة من المسلمين ، وانى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم ولأمركم ما تريدون ٠٠

وجاء من أصداء الماضى صياح المسلمين صيحة واحدة :

- لقد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ورضينا كلنا بك ٠

وراح يذكر ما قاله بعد ما هدأت الأصوات :

- أوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف ، وأكثروا من ذكر الموت

فانه هادم اللذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وان هذه الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى كتابها ولا فى نبيها وانما اختلفوا فى الدينار والدرهم • وانى والله لا أعطى أحدا باطلا ولا أمنع أحدا حقا •

أيها الناس : من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أطعت الله ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم •

انه نزل فى ذلك الوقت من على المنبر فأمر بالستور فتهتكت والثياب التى كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت وأدخل ثمنها فى بيت المال • ثم ذهب ليستريح فأتاه ابنه عبد الملك فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؟

ـ يا بنى أقيل •

ـ تقيل ولا ترد المظالم الى أهلها ؟ !

ـ انى سهرت البارحة فى أمر سليمان ، فاذا صليت الظهر رددت المظالم •

ـ من لك أن تعيش الى الظهر ؟ !

ـ ادن منى أى بنى •

فدنا منه فقبله بين عينيه وقال :

ـ الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى •

ذرية بعضها من بعض ؛ انه لم يسترح فى ذلك اليوم بل خرج وأمر مناديه فنادى فقال :

ـ ألا من كانت له مظلمة فليرفعها •

فقام رجل ذمى من أهل حمص فقال :

ـ يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ·
ـ ما ذاك ؟
ـ العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى ·
فالتفت أمير المؤمنين الى العباس وقال :
ـ يا عباس ما تقول ؟
ـ نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لى بها سجلا ·
ـ ما تقول يا ذمى ؟
ـ يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى ·
ـ نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ·
والتفت الى العباس بن الوليد وقال :
ـ قم فاردد عليه ضيعته ·

فردها عليه ، ثم تتابع الناس فى رفع المظالم ، فما رفعت اليه مظلمة الا ردها سواء كانت فى يده أو فى يد غيره · رد فص خاتم كان فى يده وقال :
ـ أعطانيه الوليد من غير حق ·

ورد جهاز زوجه فاطمة بنت عبد الملك الى بيت مال المسلمين ، فما يدرى أمن حلال كان أم من حرام ، وكان دخله قبل أن ولى الخلافة أربعين ألف دينار فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعمائة دينار فى كل سنة !

انه لم يعرف الراحة منذ ذلك اليوم · انه فى صراع مع أهله وولاته لتكون شريعة الله هى دستور الناس فى الأرض ·

أخذ أموال بنى أمية مما كان فى أيديهم بغير

استحقاق ، فاستغاثت بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس فلم يفدهم ذلك شيئا ، فرأوا أن يعودوا الى عمتهم فاطمة بنت مروان لتدخل عليه وتقول له انه أخذ أموالهم وانه لا يرفع بهم رأسا ، فقامت فركبت اليه • فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها وألقى لها وسادة وشرع يحادثها ، فرآها غضبى فقال لها عمر :

ـ يا عمة مالك !

ـ بنو أخى عبد الملك وأولادهم يهانون فى زمانك وولايتك ، وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ويسبون عندك فلا تنكر ؟

ـ يا عمة اعلمى أن النبى صلى الله عليه وسلم ما ، وترك الناس على نهر موورود ، فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئا حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك رجل آخر فكرى منه ساقييه ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون بالسواقى حتى تركوه يابسا لاقطرة فيه • وايم الله اعلمى لئن أبقانى الله لأردنه الى مجراه الأول •• فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ، واذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالى والوالى لا يزيل ذلك •• فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناء عنه فى غيرهم ؟

ـ فلا يسبوا عندك •

ـ من يسبهم ؟ انما يرفع الرجل مظلمته فآخذ له بها •

وأقبل عقبة بن سعيد بن العاص الى ديوان المظالم وهو يطمع فى الصداقة التى بينه وبين الخليفة ، وراح يكلم عمر فى عطية قدرها عشرون ألف دينار كان أمر

بها سليمان ولم تصرف له بعد ، قال :

ـ يا أمـــير المؤمنين ان أمير المؤمنين سليمان كان قد أمر لى بعشرين ألف دينـــار حتى انتهت الى ديوان الختم ولم يبق الا قبضها فتوفى على ذلك •• وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان •

ـ كم ذلك ؟

ـ عشرون ألف دينار •

ـ عشرون ألف دينـــار تغنى أربعـــة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل واحد ؟

واالله ما لى الى ذلك من سبيل ••

وغلا مرجل غضب بنى أميـــــة ، وبلغ عمـــــر بن عبد العزيز أن يزيد بن عبد الملك قال ساخطا : « كأنه يظن أنى لا أكون من بعده » • فأرسل عمر الى بنى أمية الواقفين ببابه ينتظرون الاذن ليكلموه فى أمورهم : « ان عمر يقرأ عليكم الســـلام ويقول لكم : أقسم بالله الذى لا اله الا هو ما زلت هذه الليلة الماضية ساهرا أناجى الله وأستغفره حيث أعطيتكموها دون المسلمين ، فلا والله لا أعطيكم درهما الا أن يأخذ جميع المسلمين ، وأما أنت يا يزيد فاذا وليت فشأنك بها » •

ـ ١٨ ـ

بعث عمر بن عبد العزيز الى مسـلمة بن عبد الملك ومن معـه من المسـلمين وهم بأرض الروم محاصرو القسطنطينية وقد اشتد عليهم الحال كتابا يأمرهم فيه بالرجوع الى الشام ؛ الى منازلهم ، وبعث اليهم بطعام كثير فقـد علم أنهم أكلوا كل شيء الا التراب • ففرح الناس بذلك فما كان فتح القسطنطينية أمرا يسيرا بعد أن خان اليون الرومى المسلمين •

وعزل يزيد بن المهلب عن العـراق فقد كان عمـر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول :

ــ هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم •

وكان يزيد بن المهلب يبغض عمر ويقول :

ــ انى لأظنه مرائيا •

فلما ولى عمر عرف يزيد أن عمـر كان عن الرياء بعيدا • ودعا عمر يزيد فسأله عن الأموال التى كتب بها الى سليمان بن عبد الملك فقال :

ــ كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت ، وانمـا

كتبت الى سليمان لأسمع النـاس به • وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشىء سمعت ولا بأمر أكرهه •

ـ ما أجد فى أمرك الا حبسك ، فاتق الله وأد ما قبلك فانها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها •

وأرسله الى محبسه وبعث الى الجراح بن عبد الله الحكمى فسرحه الى خراسان •

وأقبـل مخلد بن يزيد من خراسان يبعثر الأموال على الناس ، ولا يمر بكورة الا أعطاهم فيهـا أموالا عظاما • ثم خرج حتى قدم على عمـر بن عبد العزيز فدخل عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ ان الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة معروفا بولايتك عليها وقد ابتلينا بك ، فلا تكن أشقى النـاس بولايتك • علام تحبس هذا الشيخ ؟ أنا أتحمل ما عليه فصالحنى على ما اياه تسأل •

ـ لا • الا أن تحمل جميع ما نسأله اياه •

ـ يا أمير المؤمنين ان كانت لك بينة فخذ بها ، وان لم تكن بينة فصدق مقالة يزيد والا فاستحلفه ، فان لم يفعل فصالحه •

ـ ما أجد الا أخذه بجميع المال •

فلما خرج مخلد قال :

ـ هذا خير عندى من أبيه •

فلم يلبث مخلد الا قليلا حتى مات • وأبى يزيد بن المهلب أن يؤدى الى عمر شيئا فألبسه جبة من صوف وحمله على جمل ثم قال :

ـ سيروا به الى دهلك •

فلما أخرج قمر به على الناس أخذ يقول :

ـ أما لى عشيرة ؟ لم يذهب بى الى دهلك ؟ انما يذهب الى دهلك بالفاسق المريب الخارب . سبحان الله أما لى عشيرة ؟

فدخل على عمر سلامة بن نعيم الخولانى فقال :

ـ يا أمير المؤمنين . اردد يزيد الي محبسه ، فاني أخاف ان أمضيته أن ينتزعه قومه فانى قد رأيت قومه غضبوا له .

فرده الى محبسه .

وقدم الجراح الى خراسان فكتب الى عمر : « انى قدمت خراسان فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة فهم ينزون فيها نزا ، أحب الأمور اليهم أن تعود ليمنعوا حق الله عليهم . فليس يكفهم الا السيف والسوط ، وكرهت الاقدام على ذلك الا باذنك » .

فكتب اليه عمر : « يا بن أم الجراح أنت أحرص على الفتنة منهم . لا تضربن مؤمنا ولا معاهدا سوطا الا في حق . واحذر القصص فانك صائر الى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتقرأ كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

وأصاب الجراح مغنما فكتب به الى عمر ، وأوفد بالكتاب والغنائم وفدا رجلين من العرب ورجلا من الموالى . ودخل الوفد على الخليفة فتكلم العربيان والآخر جالسا .

فقال له عمر :

ـ أما أنت من الوفد ؟

ـ بلى ٠
ـ فما يمنعك من الكلام ؟
ـ يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخـذون بالخراج ، وأميرنا عصى جاف يقـوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حفيا وأنا اليـوم عصى ، والله لرجل من قومى أحب الى من مائة من غيرهم ٠ وبلغ من جفائه أن كم درعه يبلغ نصف درعه ، وهو يعـد سيفا من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ٠

فقال عمر فى اعجاب :
ـ اذن مثلك فليوفد ٠

وكتب عمر الى الجراح : « انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع عنه الجزية » ٠

فسارع الناس الى الاسلام فقيل للجراح :
ـ ان الناس قد سارعوا الى الاسلام وانمـا ذلك نفور من الجزية فامتحنهم بالختان ٠

فكتب الجراح بذلك الى عمر ، فكتب اليه عمر :
ـ « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ، ولم يبعثه خاتنا » ٠

وقال عمر لمن عنده :
ـ أبغونى رجلا صدوقا أسأله عن خراسان ٠
ـ قد وجدته ٠ عليك بأبى مجلز ٠

فكتب الى الجراح أن أقبل واحمل أبى مجلز ٠

وقبل أن يخرج الجراح الى عمر أخذ عشرين ألفا من بيت المال وقال :

ـ هى على سلف حتى أؤديها الى الخليفة ٠

وراح الجراح يخطب قبل أن يغادر خراسان :

ـ يا أهل خراسان جئتكم فى ثيابى هـذه التى علىّ وعلى فرسى ٠ لم أصب من مالكم الا حلية سيفى ٠

فخرج فى شهر رمضان ومعه أبو مجلز وقد استخلف عبد الرحمن بن نعيم ٠

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الرحمن بن نعيم: « أما بعد فكن عبدا ناصحا لله فى عباده ولا يأخذك فى الله لومة لائم ، فان الله أولى بك من الناس وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئا من أمر المسلمين الا المعروف ، بالنصيحة لهم والتوفير عليهم وأداء الأمانة فيما استرعى ٠ واياك أن يكون ميلك ميلا الى غير الحق ، فان الله لا يخفى عليه خافية ٠ ولا تذهبن عن الله مذهبا ، فانه لا ملجأ من الله الا اليه » ٠

وقدم الجراح على عمر ، فقال له عمر :

ـ متى خرجت ؟

ـ فى شهر رمضان ٠

ـ قد صدق من وصفك بالجفاء ، هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج ؟

ودخل أبو مجلز على عمر مع الناس فلم يعرفه عمر ، وخرج مع الناس فسأل عنه فقيل :

ـ دخل مع الناس ثم خرج ٠

فدعا به عمر فقال :

ـ يا أبا مجلز لم أعرفك ٠

ـ فهلا أنكرتنى اذ لم تعرفنى !

ـ أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله ·

ـ يكافيء الأكفاء ويعـادي الأعـداء ، وهو أمير يفعل ما يشاء ، ويقدم ان وجد من يساعده ·

ـ وعبد الرحمن بن نعيم ·

ـ ضعيف لين يحب العافية وتأتى له ·

ـ الذي يحب العافية وتأتى له أحب الىّ ·

فولاه الصلاة والحرب وولى عبد الرحمن القشيرى الخراج ، وكتب الى أهل خراسان : « انى قد استعملت عبد الرحمن بن نعيم على حربكم وعبد الرحمن القشيرى على خراجكم على غير معرفة منى بهما ولا اختبار الا ما أخبرت عنهما · فان كانا على ما تحبون فاحمدوا الله ، وان كانا على غير ذلك فاستعيذوا بالله ولا حول ولا قوة الا بالله » ·

وكتب عمر الى عبد الرحمن بن نعيم : « ان العمل والعلم قريبان · فكن عالما بالله عاملا له ، فان أقواما علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالا » ·

ـ ١٩ ـ

ازداد سخط بنى أميـــة وضجوا من الفقــر الذى أوصلهم اليه عمر ، فاجتمعوا اليه وقالوا :

ـ انك قد أحييت بيت مال المسلمين وأفقرت بنى أبيك فيما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك فدعهم وما كان منهم واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت ٠

فقال عمر :

ـ ولكنى أرى ذلك ، والله لوددت ألا تبقى فى الأرض مظلمة الا رددتها على شرط ألا أرد مظلمة الا سقط لها عضو من أعضائى حتى يكون مع رد آخر مظلمة منها خروج نفسى معها ٠

شيئان ما كان يغفل عنهما : رد المظالم ، ومراقبة بيت مال المسلمين ٠ ان الفقيه الورع وهب بن منبـه مسئول عن بيت مال المسلمين ، وقد فقـد منه أثنـاء مراجعة الحساب دينار أو بضعة دنانير ، فلمـا رفع الأمر اليه كتب الى وهب : « انى لا أتهم دينـك ولا أمانتك ولكننى أتهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حجيج

المسلمين فى أموالهم » • ثم أمره برد ما فقد فرده وهب من خاصة ماله ، ورضى عمر ولم يغضب الرجل التقى الورع فالحق أحق أن يتبع •

وكتب مطرف اليه : « أما بعد ، فان الدنيا دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم له ، فكن بها كالمداوى جرحه ، واصبر على شدة الدواء لما تخاف من عاقبة الداء •

وراح مناديه ينادى :

ـ أين الغارمون ؟ أين الناسكون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟

وكان الغارمون والناسكون والمساكين واليتامى يدخلون عليه فيعطيهم من بيت المال حتى أغنى كلا من هؤلاء •

★ ★ ★

خرج سودب الخارجى فى الجزيرة وقوى أمره فيمن خرج معه من ربيعة وغيرها ، فأرسل عمر اليهم محمد بن الزبير الحنظلى وعون بن عبد عتبة بن مسعود وكتب معهما كتابا فأتياهم فأبلغاهم كتابه ورسالته ، فبعثوا معهما رجلين : أحدهما من بنى شيبان والآخر فيه حبسة [1] وهو أحدهما لسانا وعارضة ، فقدما بهما على عمر بن عبد العزيز وهو بخناصرة فصعدوا اليه الى غرفة وهو فيها ومعه ابنه عبد الملك وكاتبه مزاحم ، فقال عمر :

---

(١) أبوه عبد وأمه جارية •

ـ فتشوهما لئلا يكون معهما حديد ٠
فقعلوا ، فلما دخل الرجلان قالا :
ـ السلام عليك ٠
ثم جلسا فقال لهما عمر :
ـ أخبرانى ما الذى أخرجكم مخـرجكم هـذا ؟ وما نقمتم علينا ؟
فتكلم الذى فيه حيسة فقال :
ـ والله ما نقمنا عليـك فى سيرتك ، وانك لتجزىء بالعدل والاحسـان ٠ ولكن بيننـا وبينك أمر ان أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وان منعتناه فلست منا ولسنا منك ٠
ـ وما هو ؟
ـ رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم وسلكت غير سبيلهم ، فان زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق ٠
ـ انى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا ولكن أردتم الآخرة وأخطأتم طريقها ، وانى سائلكم عن أمور فبالله لتصدقننى عنها ٠ أرأيتما أبا بكر وعمر ؟ أليسا من أسـلافكم ومن تتولونهما وتشهدون لهمـا بالنجاة ؟
ـ بلى ٠
ـ فهل علمتم أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب قاتلهم فسـفك الدماء واخذ الأموال وسبى الذرارى ؟

ـ نعم ٠
ـ فهل علمتم أن عمر حين قام بعد أبى بكر رد تلك السبايا الى أصحابها ؟
ـ نعم ٠
ـ فهل برىء عمر من أبى بكر ؟
ـ لا ٠
ـ أفرأيتم أهل النهروان أليسوا من أسلافكم ومن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة ؟
ـ بلى ٠
ـ فهل علمتم أن أهل الكوفة حين خرجوا اليهم كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما ولم يخيفوا آمنا ولم يأخذوا مالا ؟
ـ نعم ٠
ـ فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا اليهم مع الشيباني وعبد الله بن وهب الراسبى وأصحابه استعرضوا الناس يقتلونهم ولقوا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه وقتلوا جاريته ، ثم صبحوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان فى قدور الأقط [1] وهى تفور ؟
ـ قد كان ذلك ٠
ـ فهل تبرأ أهل البصرة من أهل الكوفة ؟ وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟
ـ لا ٠

(١) الجبن ٠

ـ فهل تبرءون أنتم من احدى الطائفتين ؟
ـ لا ٠
ـ أرأيتم الدين واحدا أم اثنين ؟
ـ بل واحدا ٠
ـ فهل يسعكم فيه شيء يعجز عنى ؟
ـ لا ٠
ـ فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة وتولى بعضهم بعضا ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء : فى الدماء والفروج والأموال ٠ ولا يسعنى فيما زعمتم الا لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم ؟ أرأيتم لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لا بد منها ؟ فان كانت كذلك فأخبرنى أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون ؟
ـ لا أذكر متى لعنته ٠
ـ ويحك ؟ ! لم لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق ويسعنى فيما زعمت لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم ؟ ويحك !! انكم قوم جهال ٠ ثم أردتم أمرا فأخطأتموه فأنتم تردون على الناس ما قبله منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده ٠
ـ ما نحن كذلك ٠
ـ بل سوف تقرون بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم الى خلع الأوثان وشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن فعل ذلك حقن دمه

وأحرز ماله ووجبت حرمته وكانت له أسوة المسلمين ؟

ـ نعم ٠

ـ أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ويشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسـول الله فتستحلون دمه وماله ؟ وتلقـون من ترك ذلك وأباه من اليهـود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عنـدكم وتحرمون دمه ؟

فقال الحيسى :

ـ ما سمعت كاليـوم حجة أبين وأقرب مأخذا من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء منك ٠

فقال عمر للشيبانى :

ـ فأنت ما تقول ؟

ـ ما أحسـن ما قلت وأبين ما وصـفت ، ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض قولك عليهم فأنظر ما حجتهم ٠

ـ فأنت أعلم ٠

فانصرف الشـيبانى وأقام الحيسى ، فأمر عمـر بعطائه ٠

ـ ٢٠ ـ

خرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبى منهم فاحتملوا الصبى الذى شج ابنه وجاءوا به الى عمر ، فخرج اليهم فاذا امرأة تقول :

ـ انه ابنى وانه يتيم .

فقال لها عمر :

ـ هونى عليك .

والتفت الى الصبى وقال :

ـ أله عطاء فى الديوان ؟

ـ لا .

ـ فاكتبوه فى الذرية .

فقالت زوجته فاطمة :

ـ أتفعل هذا به وقد شج ابنك ؟ فعل الله به وفعل .. المرة الأخرى يشج ابنك ثانية .

ـ ويحك انه يتيم وقد أفزعتموه .

★ ★ ★

ويعث غلامه ليشوى له لحمة فجاء بها سريعا مشوية فقال :

ـ أين شويتها ؟
ـ فى المطبخ .
ـ فى مطبخ المسلمين ؟
ـ نعم .
ـ كلها فانى لم أرزقها .. هى رزقك .

★ ★ ★

وأهدى له رجل من أهل بيته تفاحا فاشتمه ثم رده مع الرسول وقال له :

ـ قل له قد بلغت محلها .

ـ يا أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ، وهذا رجل من أهل بيتك .

ـ ان الهدية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية ، فأما نحن فانها لنا رشوة .

★ ★ ★

وأقبل الليل فراح يبحث عن سراجه فقد كان له سراج يكتب عليه حوائجه وسراج لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفا . وجاء رجاء بن حيوة يسمر عنده فعشى السراج وغلام عمر نائم فقال رجاء :

ـ يا أمير المؤمنين ألا أنبه هذا الغلام يصلحه ؟
ـ لا دعه ينام . لا أحب أن أجمع عليه عملين .
ـ أفلا أقوم أصلحه ؟
ـ لا ليس من المروءة استخدام الضيف .

ثم قام بنفسه فأصلحه وصب فيه زيتا ثم جاء وقال :

ـ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز وجلست وأنا عمر ابن عبد العزيز ·

★ ★ ★

وراح يوسع على عماله فى النفقة يعطى الرجل منهم فى الشهر مائة دينار ومائتى دينار ، وكان يقول : انهم اذا كانوا فى كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين ·

فقالوا له :

ـ لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك ··

ـ لا أمنعهم حقا لهم ولا أعطيهم حق غيرهم ·

★ ★ ★

وعلم أن رجلا من ولد على كرم الله وجهه بالباب ، فأذن له وأكرمه غاية الاكرام وقال له :

ـ انى لأستحيى من الله أن تقف ببابى ولا يؤذن لك ·

وكتب الى عامله فى المدينة أن اقسم فى ولد على ابن أبى طالب عشرة آلاف دينار · فكتب اليه : « ان عليـا قد ولد له فى عدة قبـائل من قريش · ففى أى ولده ؟ » فكتب اليه : « لو كتبت اليك فى شاة تذبحها لكتبت الىّ سوداء أو بيضاء · اذا أتاك كتابى هـذا فاقسم فى ولد على من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار ، فلطالما تخطتهم حقوقهم والسلام » ·

والتفت الى من عنده وقال :

ـ كنا نحن وبنو عمنـا بنو هاشم مرة لنـا ومرة علينا · نلجأ اليهم ويلجأون الينا ·· حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق ، وأخرست كل منـافق ، وأسكتت كل ناطق ··

وجاء العلماء وراحوا يتدارسون ، قال :

ـ أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب ٠٠

وكان ذلك غريبـــا من أمـــوى ، فالأمويون كانوا يسبون عليا ، أما هو فقد أمر بعدم سبه ، وأن يقـــول الخطبـــاء من فوق المنـــابر : « ان الله يأمر بالعـــدل والاحسان وايتـــاء ذى القربى وينهى عن الفحشـــاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ٠

★ ★ ★

جاءه زريق مولى على بن أبى طالب فقال :

ـ يا أمير المؤمنين انى رجل من أهـــل المدينة وقد حفظت القرآن والفرائض ، وليس لى عطاء فى الديوان٠

ـ ولم ؟ يرحمك الله ٠ من أى الناس أنت ؟

ـ رجل من موالى بنى هاشم ٠

ـ مولى من ؟

فسكت زريق ، فصاح به عمر :

ـ أتكتمنى من أنت ؟

ـ أنا مولى على بن أبى طالب ٠

قالها زريق بصوت خافت لما يعلم من العداوة بين الأمويين وبنى هاشم ، ولكن عمر قال بصوت جهورى :

ـ وأنا مولى على ٠ أتكاتمنى ولاء على ؟

تعلم عمر حب أهل البيت ٠ فانه ليذكر أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » وان كل آماله أن يرضى الله ورسوله ٠

كان أكثر من العلماء علما وكانوا عنده تلامذة فهو

معلم العلماء .. وكلمه رجل حتى أغضبه فهمّ به عمر، ثم أمسك نفسه ثم قال للرجل :
ـ أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله منى غدا . قم .. عافاك الله لا حاجة لنا فى مقاولتك ..

★ ★ ★

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رؤياه التي رآها قبل أن يصبح أميرا للمؤمنين ، أن يكون عندما يلى الخلافة مثل أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب . ان خلافة الرجلين قد قامت على كتاب الله وسنة نبيه والعدل بين الناس ، لذلك رأى أن تقوم خلافته على ما قامت عليه خلافة الشيخين ؛ فما كان فى زمانهم شيعة ولا خوارج ، ولا انفاق أموال على أبهة الحكم والسلطان ، ولا كبت لحريات الناس ، ولا فصل السياسة عن الدين ، ولا فصل المال عن الدين ؛ فالحكم لله لا للأمة ولا للسلطان ، فليس للحاكم أن يعتبر نفسه مصدرا للتشريع ، والمال مال الله ، وما الخليفة الا حارس على هذا المال ينفقه فيما أمر الله أن ينفق ويجبى من حيث أمر الله أن يجبى ، فما ينبغى أن يجبى الا من طيب ولا أن ينفق الا فى طيب .

انه منذ اللحظة الأولى يحس أن طاعته لله هى التى تسلس له قياد رعيته ، وقد قال فى أول خطبة خطبها بعد ولايته : « يأيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أطعت الله فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

انه قاسى من تكميم الأفواه أيام الوليد بن عبد الملك، فقد دخل السجن ثلاثا وقد أصيب بأذى ووجع شديد فى رقبته لما اشتد فى نصحه للوليد وأمره أن يكف عن قتل المسلمين ومنع ولاته السفاحين من سفك الدماء لأوهى الأسباب • انه ليدرك معنى الحرية السياسية، بل انه ليرى أن الحاكم لا يركب موجة الطغيان الا اذا أخرس الألسنة وحال بينه وبين الناصحين الراشدين •

ان الخلافة ليست جلب مغانم ولا التسلط على رقاب الناس ولا علوا فى الحياة ، بل هى مسئولية جسيمة لا ينهض بها الا أولو العــزم من الرجال • وكان ابن عبد العزيز يستشعر خطرها فكان يقــول : « فلعمرى ما ازددت علما بالولاية الا ازددت لها مخافة ومنها وجلا ولها اعظاما ، حتى قدر الله لى منها وقدر على ما قدر ، فأنا أشد ما كنت لها استقتالا ، ثم أحسن الله حميد أعوانى وعاقبتى وعاقبة من ولانى أمره ، فأصلح أمرهم وجمع كلمتهم » •

وعرف عمــر أنه ما من حكومة رشــيدة الا وتقيم قوائمها على العدل ، فكان أول ما فعله أن نحى الولاة الظلمة ؛ عزل أسامة بن زيد الذى جلب الدر حتى انقطع والدم حتى انصرم عن مصر ، وعزل يزيد بن أبى مسلم عن افريقية لأنه كثير القتل بطاش يظهر التأله ، وأراد أن يذكر الناس بالعــدل على الدوام فأمر أن تســك النقود وان يكتب فيها « أمر الله بالوفاء والعدل » •

وما كان يقوم عدل بغير قضاة عدول ، فالقضــاء قمة العدل ، فاختار قضاته من العلماء بما فى كتاب

الله وبما مضت به السنة ، وبمن اتصفوا بالحلم والعفاف والمشاورة وعدم الاستبداد بالرأى • ولم يتركهم دون توجيه بل كتب اليهم كتابا بين لهم فيه أصول الحكم : « ••• فاذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره وأن تبتلى به ، فرأيت منه سوء نزعة وسوء سيرة فسدده ما استطعت وبصره وارفق به وعلمه ، فان اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلا ، وان هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه •

« فان رأيت أنه أتى ذنبا استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه يغضب من نفسك عليه ، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق فى قدر ذنبه بالغا ما بلغ وان لم يبلغ ذلك الا قدر جلدة واحدة تجلده اياها • وان كان ذنبه فوق ذلك ورأيت عليه من العقوبة فى ذلك قتلا فما دونه فأرجعه الى السجن ولا يسرعن بك الى عقوبته حضور من يحضرك ، فانه لعمرى ربما عاقب الامام لمحضر جلسائه ولتأديب أهل بلده ولتغامزهم به •

« وما من قوم يسمعون بقضاء امام الا سيختلفون فيه على أهوائهم الا من رحم الله ، فان من رحم الله لا يختلفون فى قضاء ، وان استجهلت فتثبت ، واذا نظر اليك من حولك ما أنت فاعل بسفيه من رعيتك ان سفه وأخطأ فاعمد فى ذلك للذى ترى أنه أبر وأتقى وخير لك غدا فيما بعد الموت •

« ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم فى كل

شبهة ، فان الوالى اذا أخطأ فى العفو خير له من أن يتعدى فى العقوبة » .

★ ★ ★

انه بذلل كل ما فى طاقته لوحدة الأمة وتوحيد الكلمة ، فقد فتح قلبه لأهل البيت وأمر بمنع الناس عن سب على كرم الله وجهه من فوق منابر المسلمين . وناظر الخوارج وبعث اليهم بالكتب وناقش أفكارهم وقرع الحجة بالحجة فوفقه الله الى رد الكثيرين منهم الى الحق والصواب . وكان يقول لبعض صحابته بعد رضوخ الخوارج للحق :

ــ يا فلان ، اذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى فلا تكوينه أبدا .

انه يضيق بخلاف الناس وقتالهم ، وانه ليذكر ما قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رؤياه . انه طلب منه أن يكف عن الدم اذا ما صارت الأمور اليه ، وانه ليمقت اراقة دماء المسلمين . فكتب الى ولاته ليقرءوا كتابه على الناس : « يأهل الاسلام ! انى أحذركم هذا القرآن وتباعته ، فان تباعته وشروطه قد أصابكم منها أيتها الأمة وقائع من هراقة دماء وخراب ديار وتفرق جماعات . فانظروا ما أزجركم الله عنه فى كتابه فازدجروا ، ثم ان ما هاجنى على كتابى هذا أمر ذكر لى عن رجال من أهل البادية ورجال ضلوا حديثا ، ظاهر جفاؤهم ، قليل علمهم بأمر الله ، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ، ونسوا فيه بلاءه نسيانا عظيما . وغيروا فيه نعمه تغييرا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه .

وذكر لى أن رجالا من أولئك يتحاربون الى مضر والى اليمن ، يزعمــون أنهم ولاة على من سواهم ٠ وسبحان الله وبحمده ، ما أبعدهم عن شكر نعمــة الله وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصغر ٠ أو لم يسمعوا الى قول الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » ٠

وجاء رجل من مصر ينازعه فى أرض له ويدعى أن أباه عبد العزيز قد استولى عليها دون مقابل عنــدما كان واليــا على مصر ، وألقى سمعــه الى المصرى ، فلو كانت الأرض له وحده لأعطاها للمصرى عن طيب خاطر ولكنها ميراث له ولاخوته ، فقال أمير المؤمنين فى لين :

ـ ان لى فيهــا شركاء اخــوة وأخوات ، وهؤلاء لا يرضون أن أرد لك الضيعة بغير القضاء ، والرأى أن تذهب الى القاضى ٠

واستمع القــاضى للمتخاصمين فقضى للمصرى ٠ فقال عمر :

ـ قد أنفقنا عليها ألف درهم !

فنظر القاضى فاذا عمر وأهله قد أخذوا من غلتهــا بقدر ما أنفقوا فقال:

ـ قد أخذتم منهــا بقدر ما أنفقتم عليها ، فردوها لصاحبها ٠

فقال عمر فى استبشار :

ـ بارك الله عليك أيها القاضى ٠

وقام فرد الأرض للمصرى ٠

★ ★ ★

وأصبح الصباح فسـأل فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وأخت سـليمان بن عبـد الملك وزوجـة أمير المؤمنين أن تقرضه درهما أو فلوسا يشـترى له بها عنبا ، فلم يجد عندها شيئا فقالت له :

ـ أنت أمير المؤمنين وليس فى خزانتك ما تشترى به عنبا !

ـ هـذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غدا فى نار جهنم ٠

★ ★ ★

وكتب الى بعض ولاته : « أذكرك طول سـهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، واياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك وانقطاع الرجاء منك ٠

فخلع هذا العامل نفسه من العمالة وقدم على عمر فقال له :

ـ ما لك ؟

ـ خلعت قلبى بكتـابك يا أمـير المؤمنين ٠ والله لا أعود الى ولاية أبدا ٠

- ٢١ -

أخرج عمر بن عبد العزيز كتاب سـالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب الذي بعث به اليه لما ولى الخلافة ، وراح يقرأ :

« أما بعد يا عمـر ، فانه ولى الخلافة والملك قبلك أقوام فماتوا على ما قد رأيت ، ولقوا الله فرادى بعـد الجموع والحفدة والحشم ، وعالجوا نزع الموت الذى كانوا منه يفرون ؛ فانفقأت أعينهم التى كانت لا تفتأ تنظر لذاتها ، واندقت رقابهم غير موسدين بعد لين الوسائد وتظاهر الفرش والمرافق والسرور والخدم ، وانشقت بطونهم التى كانت لا تشبع من كل نوع ولون من الأموال أو الأطعمة ، وصاروا جيفـا بعـد طيب الروائح العطرة ، حتى لو كانوا الى جانب مسكين ممن كانوا يحقرونه وهم أحياء لتأذى بهم ولنفر منهم .. بعد انفاق الأموال على أغراضهم من الطيب والثياب الفـاخرة الليـنـة . كانوا ينفقون الأموال اسرافا فى أغراضهم وأهوائهم ، ويقترون فى حق الله وأمره ، فان استطعت أن تلقـاهم يوم القيـامة وهم محبوسـون

مرتهنون بما عليهم وأنت غير محبوس ولا مرتهن فافعل واستعن بالله ولا قوة الا بالله سبحانه » .

أرهف بالقرآن حسه ورق قلبه .. ولم يرض عن الولاة الذين انحرفوا عن الطريق . انه بلغه عن عدى ابن أرطأة بعض ما يكره فكتب اليه : « أما بعد فانه غرنى بك مجالستك القراء ، وعمامتك السوداء وارسالك اياها من وراء ظهرك ، وأنك أحسنت العلانية فأحسنا بك الظن ، وقد أطلعنا الله على كثير مما تعملون » .

وقال لمن عنده :

ـ استعملنا أقواما كنا نرى أنهم أبرار أخيار ، فلما استعملناهم اذا هم يعملون أعمال الفجار .. قاتلهم الله أما كانوا يمشون على القبور ؟ .

★ ★ ★

وبلغه أن أحد أولاده اتخذ خاتما واشترى له فصا بألف درهم ، فكتب اليه : « أما بعد فقد بلغنى أنك اشتريت فصا بألف درهم ، فبعه وأشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتما من حديد واكتب عليه : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

★ ★ ★

وجاء من المدينة محمد بن كعب القرظى ودخل عليه فى داره المتواضعة . فقد ترك الدار الخضراء منزل الخلافة بما فيها من زخرف وزينة ومتاع ، فألفاه جالسا للناس على الأرض وقد نحل جسمه وعفا شعره وتغير لونه . ان عهد محمد به أيام أن كان فى المدينة

وهو أمير عليهـا حسن الجسـم ، ممتلىء الصحة ، حسن الهندام ، يتبختر فى مشيته العمـرية حتى كان الشباب يحاولون تقليدها .

وجعل ابن كعب ينظر اليـه لا يصرف بصره عنـه فقال له :

ـ يا بن كعب .. مالك تنظر الىّ نظرا ما كنت تنظره الىّ من قبل ؟

ـ لعجبى يا أمير المؤمنين .

ـ ومم عجبك ؟

ـ مما نحل من جسمك وعفا من شعرك وتغير من لونك . أين ذلك اللون النضير والشعر الحسن والبدن الريان ؟

فقال عمر فى مرارة :

ـ انك اذن لأشـد عجبـا من أمرى وانكارا لى ، لو رأيتنى بعد ثلاث فى قبرى وقد وقعت عينـاى على وجنتى وسكن الدود منخرى وفمى .

وسكب دموعه . انه لا يفتـأ يذكر الموت .. وانه يجتمع كل ليلة اليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون الا الموت والآخرة ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة .

وقد قال مرة لرجل من جلسائه :

ـ لقد أرقت الليلة مفكرا .

ـ وفيم يا أمير المؤمنين ؟

ـ فى القبر وساكنه ، انه لو رأيت الميت بعد ثلاث فى قبره وما صار اليه لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناصيته ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهـوام

وتختزن فيه الديدان ويجرى فيـه الصديد ، مع تغير الريح وبلى الأكفان بعـد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ٠

وأمر مناديه ذات يوم فنادى فى الناس ٠

فجمع الناس فخطبهم فقال فى خطبته :

ـ انى لم أجمعكم الا أن المصدق منكم بما بين يديه من لقاء الله والدار الآخرة ولم يعمل لذلك ويستعد له أحمق ، والمكذب له كافر ٠

ثم تلا قوله تعالى : « ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شىء محيط » ٠

وقال ذات يوم لمولى له :

ـ يا بنى ٠٠ ليس الخير أن يسـمع لك وتطـاع ، وانما الخير أن تكون قد غفلت عن ربك عز وجـل ثم أطعته ٠ يا بنى لا تأذن اليوم لأحد علىّ حتى أصبح ويرتفع النهار ، فانى أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عنى ٠

ـ رأيتك البارحة بكيت بكاء ما رأيتك بكيت مثله ٠

ـ يا بنى انى والله ذكرت الوقوف بين يدى الله عز وجل ٠

كان لا يخاف الموت لأنه نهاية الحياة بل يخشاه لأنه بداية الحساب ، فقد كان أكثر الناس خوفا من الله ٠

دخل عليه اعرابى فقال :

ـ يا أمير المؤمـنين ٠٠ جاءت بى اليـك الحاجة وانتهيت الى الغاية ، والله سائلك عنى ٠

فارتجف وقال له :

ـ كم أنتم ؟
ـ أنا وثلاث بنات •
ففرض له ثلاثمائة وفرض لبناته مائة وأعطاه مائة درهم من ماله وقال له :
ـ اذهب فاستنفقها حتى تخرج أعطيـات المسلمين فتأخذ معهم •
وقال له زيادى العبدى وهو يحاوره :
ـ يا أمير المؤمنين أخبرنى عن رجل له خصم ألد ، ما حاله ؟
ـ سيىء الحال •
ـ فان كانا خصمين ألدين ؟
ـ فهو أسوأ حالا •
ـ فان كانوا ثلاثة ؟
ـ ذاك حيث لا يهنئه عيش •
ـ فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الا وهو خصمك •
فبكى عمر حتى أن زيادا تمنى أن لم يكن حدثه ذلك •
وجاء رجل من أذربيجان فقام بين يديه وقال :
ـ يا أمير المؤمنين اذكر بمقـامى هـذا بين يديك مقامك غدا بين يدى الله ، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق •• من يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب •
وترقرقت الدموع فى عينى الخليفة وقال :
ـ ما حاجتك ؟
ـ ان عاملك بأذربيجان عدا علىّ فأخذ منى اثنى

عشر ألف درهم فجعلها فى بيت المال ٠

ـ اكتبوا له الساعة الى عاملها فليرد عليه ماله ٠

ودخل ذات يوم على زوجته زهرة الخلافة فاذا بها تخيط ثوبها بيديها ، فتذكر تلك الأيام التى كانت فيها بنت الخليفة في قصر الخلافة منعمة فى بحبوحة من العيش تشـــير فتلبي الجوارى اشــارتها ، وتتمنى وسرعان ما تتحقق أمنيتها ، فأراد أن يداعبهــا وأن يخفف عنها قدنا منها وقال :

ـ يا فاطمة ، لنحن ليالى دابق أنعم منا اليوم ٠

ولكأنمــا نكأ جرح نفســها لما نكرها بتلك الأيام السعيدة التى عاشاها معا فى مرج دابق فى عسكر أمــير المؤمنين سـليمان بن عبــد الملك ٠ ان الموائد الفاخرة كانت تمد والمكان يعبق بأطيب الريح والأنغام الحالمة تنساب تشنف الآذان ٠٠ أين تلك الأيام من هذه الأيام ؟

كان سليمان بن عبد الملك خليفة المسلمين وعمر بن عبد العزيز الآن خليفة المسلمين ، والفرق بينهمــا أن سليمان قدعب من الدنيا وأشبع شهواته بينمــا حرم عمر على نفسه الشهوات ٠ فقالت فاطمة للخليفة الذى يرتدى أخشن الثياب :

ـ والله ما كنت على ذلك يومئذ أقدر منك اليوم ٠

نعم انه قادر على أن يعيش اليوم وهو خليفة حياة أمتع من تلك الحياة التى كان يعيشها قبل أن تأتى اليه الخلافة ، ولكن ارهاف حسه الدينى يقف كالسد المنيع أمام الشهوات ٠ فقال :

– يا فاطمة انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم .

وكان بنو أمية حاقدين على الرجل الذى سوى بينهم وبين الناس ، فكان يقول بعضهم لبعض :

– لا تلوموا الا أنفسكم ، فقد عمدتم الى صاحبكم عبد العزيز بن مروان فزوجتموه حفيدة عمر بن الخطاب ، فجاءتكم بعمر بن الخطاب ملفوفا فى ثياب عمر بن عبد العزيز ، فلا تلوموا الا أنفسكم .

ولم يكن عمر بن عبد العزيز يأبه لغضب بنى أمية وما كان يقيم له وزنا ، فقيل له :

– يا أمير المؤمنين ألا تخاف غوائل قومك ؟

واذا بالرجل اللين السمح يقول فى غضب :

– أبيوم سوى يوم القيامة تخوفنى ؟ فكل خوف أتقيه دون يوم القيامة لا وقيته .

كان عمر بن عبد العزيز أول خليفة أموى لا يجد الناس حاجة فى قرع بابه ، فان ما يكون لهم من حق يأتيهم وهم فى دورهم وما ليس لهم بحق فدون بلوغه قطع الرقاب .. فكان عنده الوقت ليسير بين الناس يتفقد شئونهم .

وخرج من داره المتواضعة وانطلق فى الطرقات وكان الناس يعرفونه .. وما كان أحد يقوم له حين يمر به فقد نهى الناس عن القيام له وقال لهم :

– انما يقوم الناس لرب العالمين .

ورآه رجل من المسلمين كانت له حاجة فناداه قائلا :

– يا خليفة الله فى الأرض .

فقال عمر فى غضب :

ــ مه! انى لما ولدت أسمانى أهلى عمر ، فلو ناديتنى يا عمر أجبتك • ولما كبرت اخترت لنفسى كنية فكنيت : أبا حفص •• فلو ناديتنى يا أبا حفص أجبتــك ، ولما وليتمونى أموركم سميتمونى أمير المؤمنين فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين أجبتك •

وأما خليفة الله فى الأرض فلست كذلك • انما خلفاء الله فى الأرض رسله وأنبياؤه •

وسار فى خناصرة ــ المدينة التى يفضــل الاقامة فيهــا ــ حتى اذا ما بلغ مسجد الجنابة دخــل خاشع القلب وصعد المنبر وراح يخطب الناس قال :

ــ أيها النــاس انكم لم تخلقوا عبثــا ولن تتركوا سدى، وان لكم معادا ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم • وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، وحرم الجنة التى عرضها السموات والأرض •

ألا واعلموا أنما الأمان غدا لمن حــذر الله وخافه ، وباع نافدا بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان • ألا ترون أنكم فى أســلاب الهالكين وسيخلفها بعــدكم الباقون كذلك حتى ترد الى خير الوارثين ؟

وفى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله ، فتغيبونه فى صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد قد فارق الأحبــاب وخلع الأسباب فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتهن بعمله فقير الى ما قدم غنى عما ترك ، فاتقوا الله قبــل

نزول الموت وانقضـــاء مواقعه ، وايم الله انى لأقول لكم هذه المقالة .. وما أعلم عن أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندى ، فأستغفر الله وأتوب اليه . وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة الا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما منكم من أحد يسعه ما عندنا الا وددت أنه ساوانى ولحقنى حتى يكون عيشنا وعيشه سواء .

وايم الله لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش لكان اللسان منى به ذلولا عالما بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب وسنة عادلة يدل فيها على طاعته وينهى عن معصيته .

★ ★ ★

انه لا يفتأ يذكر الموت والحســاب ، وانه لا يترك فرصة تمــر دون أن يذكر النـــاس بأهوال يوم الدين ليزهدوا فى الدنيا ، فالزهد باب الأمان ، فكان يخطب الناس قائلا : « ان لكل سفر زادا لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا للآخرة ، فكونوا كمن عاين ما أعد الله تعالى من ثوابه وعقــابه ، فرغبوا ورهبوا . ولا يطولن عليكم الأمر فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فانه والله ما بسط أمل من لا يدرى لعله لا يصبح بعد امسائه ، ولا يمسى بعد اصباحه . وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، فكم رأينا وأنتم من كان بالدنيا مغترا فأصبح فى حبائل خطوبها ومناياها أسيرا ! وانمـــا تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وانما يفرح

من أمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ من كلم الا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟

أعوذ بالله أن أخبركم بما أنهى عنه نفسى ، فتخيب صفقتى وتظهر عورتى وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقير والموازين منصوبة والجوارح ناطقة ·
لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ·

أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون الى احداهما ·

ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله ·

وعاد الى داره فدخل عليه أصحابه من الفقهاء فراحوا يديرون الحديث ، قال لأحدهم :

ـ علم ولدك الفقه الأكبر : القناعة وكف الأذى ·

ونظر اليه أبو حازم فاذا وجهه قد شحب من التقشف وتغير حاله ، فقال له :

ـ ألم يكن ثوبك نقيا ، ووجهك رضيا ، وطعامك شهيا ، ومركبك وطيا ؟

ـ ألم تخبرنى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ان من ورائكم عقبة كئودا لا يجوزها الا كل مناصر مهزول » ؟

انه عالم بأقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، عامل بسنته ، فكان يكتب الى عماله أن يأخذوا بالسنة ويقول :

ـ ان لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله ·

- ٢٢ -

أرسل عمر بن عبد العزيز الى عبد الأعلى بن أبى عمرة ليبعثه رسولا الى اليون طاغية الروم ، يدعوه الى الاسلام . فان دخل اليون فى دين الله حقن دماء المسلمين ودماء الروم على السواء ، فقال له عبد الأعلى :

ـ يا أمير المؤمنين ائذن لى فى بعض بنىّ يخرج معى .

وكان عبد الأعلى له عشرة من الذكور فقال له :

ـ انظر من يخرج معك من ولدك .

ـ عبد الله .

ـ انى رأيت ابنك عبد الله يمشى مشية كرهتها منه، ومقته عليها ، وبلغنى أنه يقول الشعر .

ـ أما مشيته تلك فغريزة فيه ، وأما الشعر فانما هو نواحة ينوح به على نفسه .

ـ مر عبد الله يأتنى وخذ معك غيره .

فراح عبد الأعلى بابنه عبد الله ، فاستنشده فأنشد :

من كان حين تصيب الشمس جبهته
أو الغبار يخاف الشيب والشعثا
ويألف الظل كى تبقى بشاشته
فسوف يسكن يوما راغما جدثا
في عقر مظلمة غبراء موحشة
يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا
تجهزى بجهاز تبلغين به
يا نفس قبل الردى لم تخلقى عبثا
ولا تكدى لمن يبقى وتفتقرى
ان الردى وارث الباقى وما ورثا
واخشى حوادث صرف الدهر فى مهل
واستيقظى لا تكونى كالذى بحثا
عن مدية كان فيها قطع مدته
فوافت الحرث موفورا كما حرثا

واستمر عبد الله ينشد فحرك مواجع الخليفة ، فراح عمر ينشد :

أنا ميت وعز من لا يموت
قد تيقنت أننى سأموت
ليس ملك يزيله الموت ملكا
أى ملك ملك من لا يموت ؟

كان ابن عبد العزيز يعيش مع الموت ويتمثل عذاب الله ، فزهد فى الدنيا واعرض عنها ، وراح يحاسب نفسه قبل ان يحاسب الناس ، فكان شديدا على ذاته وعلى اهل بيته • ودخل عليه ذات يوم فى داره أحد

أصدقائه فألفاه فى الشمس وقد لف حول جسمه ازارا، فسأله الصديق :

ـ يا أمير المؤمنين ما بك ؟

ـ لا شيء غير أنى أنتظر ثيابى حتى تجف ٠

ـ وما ثيابك يا أمير المؤمنين ؟

ـ قميص ورداء وازار ٠

ـ ألا تتخذ قميصا آخر ورداء وازارا ؟

ـ كان لى ثم بليت ٠

ـ ألا تتخذ سواها ؟

فراح يتلو فى تأثر : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ٠ فكانت آخرته هى كل دنياه ٠

ودخل على بناته الصغار فألفاهن يغطين أفواههن بأكفهن ويسابقن الى الباب ؛ وعجب فى نفسه ما الذى جعلهن يهربن منه ، وسأل فقيل له انهن ما تعشين سوى عدس وبصل ، فكرهن أن يشم من أفواههن ريح البصل ٠

وبلغ به التأثر مداه ، فبنات أمير المؤمنين ليس لديهن غير العدس والبصل ، فبعث اليهن يعتذر قال :

ـ يابناتى ، ما ينفعكن أن تعشن الألوان والأطاييب ، ثم يذهب بأبيكن الى النار ٠

انه زهد فى المسكن والملبس والمطعم وشهوات الدنيا ، فأعرض عن البناء فما بنى مسجدا فخما زينه بالفسيفساء ، فمسجد المؤمن الصادق قلبه ؛ ولا بنى

قصرا منيفا جمله بالزخارف والتهاويل ، يكفيه دار متواضعة له ولأهل بيته ؛ حتى الكعبة أبى أن يكسوها وفضل أن ينفق ما يصنع به الكسوة ليملأ بطون الجياع ·

ان له مرقاتين يرقى عليهما من صحن داره الى حجرته ، فتهدمت احدى المرقاتين فأعاد بناءها رجل من أهل بيته ، فلما جاء عمر وجدها ، فسأل :

ـ من صنع هذا ؟

ـ فلان ·

ـ الىّ به ·

فلما جاء قال له عمر :

ـ ويحك أنفست على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة ؟ والله لولا أن يكون هدمى لها افسادا بعد اصلاح ، لهدمتها ورددتها الى ما كانت عليه ·

وما كان ذلك كراهية فى البناء والاصلاح فهو من أنصار الاصلاح ، وان رعاياه يبنون ويطيلون فى البناء ؛ ولكن كان ذلك لزهده وتقشفه ، وأخذ بمبدأ اعراضه عن الدنيا لعل الآخرة تقبل عليه · وقد عبر خادم له عن حال أمير المؤمنين وحال شعبه أصدق تعبير ، كان الخادم يسحب برذون أمير المؤمنين فرآه عمر فقال له :

ـ كيف حال الناس ؟

ـ كل الناس فى راحة ، الا أنت وأنا وهذا البرذون ·

راح عمر بن عبد العزيز يدعو الله فيقول :

ـ اللهم رضنى بقضائك ، وبارك فى قدرك ، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت ·

ثم تلا : « وما تكوَن فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »·

فشرق بدموعه وارتفع صوت نحيبه ، فجاءت زوجه فبكت لبكائه ، وبكى أهل الدار لبكائهما ، فجاء ابنه عبد الملك فدخل عليهم وهم على تلك الحال ، فقال له :

ـ يا أبه ، ما يبكيك ؟

ـ يا بنى خير ·· ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه · والله يا بنى لقد خشيت أن أهلك وأن أكون من أهل النار ·

كان عبد الملك ورعا وكان يخاف الله مثل أبيـه ، فعرف حقيقة ما يكابد أمير المؤمنين ، انه كثيرا ما يحس نفس الاحساسات التى تفـزع الرجل التقى الورع ، فسفك الدمع الغزير ··

وكادت الدموع تطفر من مآقى الشاب ، ولكن رجلا من موالى الخليفة جاء يعرض عليه مسكا من بيت المال ، فسد أنفه حتى خرج الرجل بما جاء به ، فقيل له:

– لم سددت أنفك ؟

– وهل ينتفع من المسك الا بريحه ؟

ونظر ابنه عبد الملك اليه فى حب ، واذا ببصره يثبت عند الجرح الذى فى وجه أبيه ، فاستشعر الشاب راحة ، ان أباه الورع التقى هو أشج بنى أمية ، وانه اذن لسعيد .

وخرج الشاب ليعتكف فى مصلاه يدعو الله ويبتهل ويسح الدموع ، فهو زاهد فى الدنيا يستشعر لذة روحية في التسبيح بحمد ربه ، وينعم بسعادة الوصال كلما خر ساجدا لله . انه يحس وهو في سجوده أنه يطير بأجنحة المحبة ليقرع أبواب الملكوت .

ان زهد ابن الخطاب سرى فى دم أحفاده عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك ، وكانا فرحين به . وان عمر بن عبد العزيز كان يقول فى صباه لأمه ليلى بنت عاصم متمنيا : « سأكون مثل خالى عبد الله بن عمر » . واذا به برياضة نفسه وقسوته عليها وفطامها عن اللذات الحسية يفوق خاله زهدا وورعا وصلاحا .

ومرض عبد الملك وجزعت فاطمة أمه أشد الجزع ؛ أما أبوه فلم يجزع . لقد علمته الأيام أنه لا يملك له شيئا ، وأن قضاء الله نافذ . وراح يعود ابنه فيجد نور عينيه ينطفىء فيستشعر ألما . ان عبد الملك يموت أمام عينيه فيحزن ولا يجد فى حزنه مأثما ، فرسول الله صلى

الله عليه وسلم بكى لموت ابنه ابراهيم ولم يتحرك لسانه بما يغضب الله .

وفاضت روح عبد الملك وهو بين ذراعيه فسالت دموعه على خديه حتى بللت لحيته ، وبكت فاطمة وبكى كل من فى الدار ، وخرج عمر مطأطىء الرأس ، كسير الفؤاد .

وجاء اليه الناس يعزونه فقال :

ـ أمر رضيه الله فلا أكرهه .

وبعث اليه عامل له يعزيه عن ابنه ، فقال لكاتبه :

ـ أجبه عنى .

فراح الكاتب يبرى القلم ، فقال للكاتب :

ـ أدق القلم فانه أبقى للقرطاس وأوجز للحروف ، واكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فان هذا الأمر أمر قد كنا وطنا أنفسنا عليه ، فلما نزل لم ننكره والسلام » .

وجاء اليه جلساؤه ودار بينهم الحديث ، فقال عمر :

ـ من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فانها نصيحة لكم فى دينكم فاقبلوها ، وموعظة منجية فى العواقب فالزموها . الرزق مقسوم فلن يقدر المؤمن ما قسم له ، فأجملوا في الطلب فان في القنوع سعة وبلغة وكفافا . ان أجل الدنيا فى أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكأن لم يكن ، وكل أموات عن قريب ، وقد رأيت الميت وهو يسوق وبعد فراغه وقد ذاق الموت والقوم حوله

يقولون : قد فرغ رحمه الله ، وعانيتم تعجيل اخراجه وقسمة تراثه ، ووجهه مفقود ، وذكره منسى ، وبابه مهجور ، وكانه لم يخالط اخوان الحفاظ ، ولم يعمر الديار • فاتقوا هول يوم لا تحقر فيه مثقـال ذرة فى الموازين •

كان الخليفة يفكر فى رعيتـه ، يحاول أن يسـعد الجميع وأن ييسر على الجميع حتى لا تضعف حجتـه اذا ما جاء يوم الحساب ، فراح يكتب الكتب الى عماله لرد المظالم واقامة العدل وكتم أنفاس دولة الجور ، فهو لا ينسى أنه قال ذات يوم سـاخرا من الظلم الذى ساد دولة بنى أميـة : « الوليد بالشـام ، والحجاج بالعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقرة بن شريك بمصر ، ويزيد بن أبى مسلم بالمغرب ، امتلأت الأراضى والله جورا » • وهو لا يريد أن تتسم دولته بسمات الخلفاء قبله ، فراح يكتب لأحد عماله : « اعمـل خانات فى بلادك ، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يوما وليلة وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين ، فان كان منقطعا به فقووه بما يصل به الى بلده •

كان الكتاب مبعـوثا الى سليمان بن أبى السرى عامـله على سمرقند ، فلمـا قرىء الكتاب قال أهل سمرقند لسليمان :

ـ ان قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والانصاف ، فائذن لنا فليفد منا وفد الى

أمــير المؤمنين يشكون ظلامتنا ، فان كان لنــا حق أعطيناه فان بنا الى ذلك حاجة .

وانطلق الوفد الى أمير المؤمنين ، فلما دخلوا عليه عقدت ألسنتهم من الدهشة ، فالرجل الذى يمتد ملكه من الأندلس الى الصــين جالس على الأرض يرتدى مرقعة ليس ببابه أحد ، فقد ردت المظالم وأصبح كل صاحب حق ينال حقه وهو فى عقر داره .

وراح وفد سمرقند يروى ظلامته ، ان قتيبة قد غدر بهم وقد انتصر عليهم بخدعة ، فلم يقل لهم الخليفــة العادل انه لا يستطيع أن يأمر العــرب بالخروج من أرض احتلوها ، ولم يقر الأمر الواقع ، بل كتب لهم عمر الى سليمان بن السرى : « ان أهل سمرقند قد شكوا الىّ ظلمــا أصــابهم وتحاملا من قتيبــة عليهم حتى أخرجهم من أرضــهم ، فاذا أتاك كتابى فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم ، فان قضى لهم فأخرجهم الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة » .

فأجلس لهم سليمان جميل بن حاضر القاضى . فراح القــاضى يلقى اليهم الســمع . ان الحجة معهم على المسلمين ، فلم يتحيز لقومه بل قضى بأن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عنوة . انه قضى بما يطلبه أهل ســمرقند ، ومعنى ذلك أن تستأنف الحرب بين أهل البلاد والعرب فقال أهل الرأى من سمرقند :

ــ قد خلطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمناهم ، فان حكم لنا عدنا الى الحرب ، ولا ندرى لمن يكون الظفر ،

وان لم يكن لنا قد اجتلبنا عداوة فى المنازعة » .

وسار وفد من أهل سمرقند الى الوالى بعد أن أصدر القاضى حكما لمصلحتهم ، وقالوا :

ـ بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا .

وتراضوا بذلك ، ولا ريب أن عمر بن عبد العزيز قد رضى لعدم تجدد الحرب فهو يكره اراقة الدماء . انه كتب الى عبد الرحمن بن نعيم يأمره باقفال من وراء النهر بذراريهم ، فلما عرض واليه كتاب أمير المؤمنين على المسلمين أبوا أن يعودوا الى مرو عاصمة خراسان وقالوا :

ـ لا يسعنا مرو .

فكتب الى عمر بن عبد العزيز بذلك فكتب اليه عمر: « اللهم انى قضيت الذى علىّ فلا تغز بالمسلمين ، يكفيهم الذى قد فتح الله عليهم » .

وولى عقبة بن زرعة الطائى على الخراج بعد القشيرى ، فكتب اليه : « ان للسلطان أركانا لا يثبت الا بها : فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والرابع أنا . فان يكن كفافا لأعطياتهم فسبيل ذلك ، وان لم يكن كفافا فاكتب الىّ حتى أحمل اليك الأموال فنوفر لهم أعطياتهم » .

فقدم عقبة فوجد خراجهم يفضل عن أعطياتهم ، فكتب الى عمر فأعلمه ، فكتب اليه عمر : « أن اقسم الفضل فى أهل الحاجة » .

وبلغه أن رجلا من أصحابه توفى ، وما أكثر الذين توفوا من أصحابه وأهله فى السنتين اللتين مرتا مذ

ولى الخلافة · مات ابنـه عبـد الملك ، ومات غلامه مزاحم ذلك الذى كان أتبع له من ظله فما كان يتركه فى ليل أو نهار · انه كان معه فى المدينـة أيام ولايته عليها ، وكان معه مذ أول أيام انقادت اليه فيه الخلافة· أنه كان يضم أموال الخليفة وأموال زوجه وأموال بنى أمية الى بيت مال المسلمين ، وكان سعيدا أن ولى على الناس كتاب الله · ومات كثير من الأصـدقاء وكأنما كان ذلك المـوت المتراد: تذكرة له أنه أول خليفـة يموت · فكان ينتفض فرقا من الله ·

تعلم أن الجزع لا يفيد ، وأن قضاء الله لا يرد ، فلما جاء أهل صاحبه ليعزيهم فيه صرخوا فى وجهه بالبكاء عليه ، فقال :

ـ مه ! ان صـاحبكم لم يكن يرزقكم ، وان الذى يرزقكم حى لا يموت · وان صاحبكم هذا لم يسد شيئا من حفركم وانما سد حفرة نفسه · ألا وان لكل امرىء منكم حفرة لا بد وأن له أن يسدها · ان الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأت دار خبرة الا امتلأت عبرة ، ولا اجتمعوا الا تفرقوا حتى يكون الله هو الذى يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكيا فليبك على نفسـه ، فان الذى صار اليه صاحبكم كل الناس يسيرون اليه غدا»·

كان عمر بن عبد العزيز يخدم نفسه ، فدخلت عليه زوجه فاطمة وقد ألفت تلك الحياة الخشنة التى تعيشها مع زوجها · انهـا بدأت تستشعر تلك اللذة الروحية التى يحسها الزهاد ومن أعرضوا عن زخرف الدنيا ·

انها يوم أن تزوجت عمر كانت سعيدة بحسبها ونسبها ، ويوم أن ولى زوجها أمر المسلمين زادت سعادتها فقد كانت تظن أنها ستكون سيدة القصر الأخضر قصر الخلافة • وقد استبد بها الطرب لما سمعت قول الشاعر :

بنت الخليفة والخليفة جدها
أخت الخلائف والخليفة زوجها

كانت تتوهم أن زوجها على الرغم من تقاه وورعه وتقشفه لن يعرض عن الدنيا التى أقبلت عليه ، ولكن لما خيرها زوجها بين أن تعيش معه عيشة الكفاف أو العودة الى أهلها ، عرفت أن زوجها طراز آخر غير من سبقه من خلفاء بنى أمية • انه أخذ أقراطها وحليها وردها الى بيت المال ، ولم يكتف بذلك بل رد جهازها كله الى بيت مال المسلمين فلم يكن مطمئنا الى أنه حلال كله •

تضايقت فى أول الأمر من ذلك الحرمان الذى لم تعهده ، ولولا حبها العميق لزوجها لثارت كما ثار بنى أمية ؛ ولكنها مع مرور الأيام اكتشفت جوهر الحقيقة التى يعيش لها زوجها ، انه يؤثر رعاياه على نفسه ولا يخشى فى الله لومة لائم • انه سمح بالمال ، شديد على العمال ، رحيم بالمساكين • فأخذت ترى فيه عظمة ما كانت تراها فى أهل بيتها كلهم ، عظمة تنبع من ذاته لا من أبهة الحكم ورهبة السلطان •

انه فى أسماله أروع من سليمان بن عبد الملك فى فاخر ثيابه وجوهره ؛ فصفاء وجهه يعكس ذلك النور

الذى يفيض به فؤاده ، وان دموعه التى تجرى على خديه كلما أوى الى فراشه وتذكر الموت ، ترهف منها الحس وتزيد فى ثرائها الروحى ، وانه لثراء يبهر كل ما فى الأرض من كنوز ٠

وانه لقوى بالحق وان قوته لتتفوق قوة الجيوش المسلحة ٠ انه قوة جديدة ما كانت تستشعرها ٠ كانت تظن أن القوة فى حراس أبيها وقواده وجيوشه المظفرة ٠ فاذا بها ترى قوة من الله مؤيدة ٠ انه ينصر ربه فينصره ربه ، فالقوى عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف عنده قوى حتى يأخذ الحق له ٠

شخصية فريدة ليس لها مثال ، لكأنه أسطورة من الأساطير ٠ فتحول ضيقها الى اعجاب ، وسرعان ما أصبحت مريدة من مريديه فعرفت السعادة الحقة ، سعادة الأنس بالله والهروب من ضيق الدنيا الى رحاب رب العالمين ٠

وذهب ليجلس للناس ، فما أقبل عليه صاحب مظلمة ولا صاحب حاجة ، انه رد المظالم وأغنى الناس ٠ وبدأ فى فض الكتب التى جاءت اليه من الأمصار ، فراح يقرأ كتاب أيوب بن شرحبيل واليه على مصر : « ان أهل الذمة أسرعوا الى الاسلام وكسروا الجزية ، حتى استلفت من الحارث بن ثابت عشرين ألفا لأتم بها عطاء أهل الديوان » ٠

واربد وجه عمر وهو يقرأ ما بقى من الكتاب : فأيوب بن شرحبيل يطلب اليه أن يأمر بوقف الذميين عن انتحال الاسلام ، وعجب ابن عبد العزيز ، انه عزل

الجراح بن عبد الله الحكمى عن امرة العراق بعد ستة وخمسة أشهر لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ، ويقول : « أنتم انما تسلمون فرارا منها » • فامتنعوا عن الاسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية ، فكتب اليه عمر : « ان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ، ولم يبعثه جابيا » •

ألم يسمع أيوب بن شرحبيل بعزل الجراح ؟ أو لم يعرف السبب ؟ وراح عمر بن عبد العزيز يكتب لواليه لى مصر : « قد وليتك أمر مصر وأنا أعرف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا • فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا » •

ما بال الولاة لا يفهمون روح الاسلام ؟ ان عامله فى العراق عدى بن أرطأة يكتب اليه أن الناس أسلموا ، فقلت الجزية ، فكتب عمر اليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب يدنا » •

وراح عمر يردد :

ـ اللهم سلم سلم ، اللهم أصلح من كان فى صلاحه صلاح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأهلك من كان فى هلاكه صلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم •

ان الناس فى حاجة الى إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفهموا جوهر دينهم ، فراح عمر بن عبد العزيز يقول :

ـ سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه

بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعة الله ، ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر فى رأى من خالفها • فمن اهتدى بما سبق هدى ، ومن استبصر بها أبصر ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المسلمين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا •

وجاء رهط من اخوانه يتحاورون ، ففتح الله عليه بمنطق وموعظة حسنة ، فنظر الى رجل من جلسائه وقد ذرفت عيناه بالدموع ، فلما رأى ذلك عمر قطع منطقه ، فقال ميمون بن مهران وكان عنده :

ــ يا أمير المؤمنين امض فى موعظتك ، فانى أرجو أن يمن الله به على من سمعه أو بلغه •

ــ اليك عنى يا أبا أيوب ، فان فى القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم عليهم ؛ والفعال أولى بالمؤمن من المقال •

ورأى أن يكتب الى عماله يوصيهم بتقوى الله واتباع سنة رسوله ، فراح يكتب : « أما بعد فانى أوصيك بتقوى الله واتباع سنة رسوله ، والاقتصاد فى أمره ، وترك ما أحدث المحدثون بعده ممن قد حارب سنته ، وكفوا مؤنته • ثم اعلم انه لم تكن بدعة الا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها ، فعليك لزوم السنة ، فانه انما سنها من قد علم ما فى خلافها من الزيغ والزلل والحمق والخطأ والتعمق ، وانهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وعلى العمل الشديد أشد ، وانما كان عملهم على الأسد • ولو كان فيما تحملون

أنفسكم فضل لكانو فيـه أحرى ، واليه أجرى ، لأنهم السابقون الى كل خير · فان قلت : قد حدث بعـدهم خير ، فاعلم أنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين، وحاد عن طريقهم ، ورغبت نفسه عنهم ، ولقد تكلموا منه ما يكفى ، ووصفوا منه ما يشفى ، فأين لا أين ؟ فمن دونهم مقصر ، ومن فوقهم غير محسن ، ولقـد قصر أقوام دينهم فحفوا ، وطمح عنهم آخرون فغلوا ·

كان يحترم العلم فكان يحاول أن يلقن ولاته الدين السمح وسنة الرسول الكريم ـ فهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الحكم السليم ، فكان يكتب الى عماله أن يأخذوا بالسنة ويقول :

ـ ان لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله ·

ويكتب أيضـا ألا يستعمل على الأعمـال الا أهل القرآن ، فان لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى ألا يكون عنده خير · وراح يعطى من انقطع الى المسجد الجامع من بلده وغيرها للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن فى كل عام من بيت المال مائة دينار ، فما تقوم الدول القوية الا بالعلم ·

وخرج الى الأسواق ليس معه الا مولاه وبرذونه · أين هذا الموكب المتواضع من موكبه قبل الخلافة ؟ ان حوائجه وحده كانت تحمل على خمسين جملا · ولمس الناس مبلغ تضحيته من أجلهم فقال له قائل :

ـ جزاك الله عن الاسلام خيرا ·

فقال الخليفة الزاهد فى صدق :

ـ بل جزى الاسلام عنى خيرا ·

انه كان فى قرارة نفسه يوقن أنه لولا الاسلام لم يكن شيئا ٠ انه تلميذ القرآن والسنة ، فهما نوره الذى يرى به وقوته وسنده ، وله فى رسول الله أسوة حسنة، انه كما قال : متبع وليس بمبتدع ٠ لا هو دون الخلفاء الراشدين ولا هو فوقهم ولكنه منهم ، نهل من النبع الصافى الذى نهلوا منه فأوتى الحكمة ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ٠

ذاق حلاوة الرحمة لما رحم الناس ، وعرف لذة السكينة لما سكنت نفوس رعاياه ٠ فقد كانت سعادة البشر تنعكس عليه وان حرم على نفسه الطيبات ؛ فسعادته الحقة كانت فى اسعاد الآخرين ، وحريته المطلقة فى اطلاق الحريات ٠ انه تسامى بذاته حتى أصبح فوق كل الماديات ٠

كانت تهب نسمات من رحمة ربه فتجلو بصيرته وتملأ صدره بعلم غزير ، فما التمسوا علم شىء الا وجدوه أعلم الناس بأصله وفرعه ٠ وما كان العلماء عنده الا تلامذة ، وانه ليعرف أن ما يتمتع به من صفات انما هو من عند الله ، لذلك يقول :

ــ لو وكلنى الله الى نفسى لكنت كغيرى ٠

كان يريد الحق ولا شىء غير الحق ؛ انه هدفه وغايته ٠ لذلك راح يكتب الى ميمون بن مهران لما ولاه عملا : « اذا جاءك كتاب منى على غير الحق فاضرب به الأرض » ٠ ولم يكتف بأن يوصى عماله بالحق بل راح يدعو الناس الى مراقبة عماله ، حتى اذا ما حادوا عن الحق فلا طاعة لهم ٠ كتب الى الناس

فى الأمصار من الأندلس غربا الى الصين شرقا : « أى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره اليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم » .

انه يبغض الظلم أشد البغض ، وانه لا يحب أن يؤخر رفع الظلم عن المظلوم . فمن يدرى فقد يأتيه أجله قبل أن يرد للمظلوم حقه فتضعف حجته اذا ما وقف بين يدى الديان يوم الفزع الأكبر . انه يرتجف فرقا من الهول العظيم : يوم يقوم الناس لرب العالمين ؛ لذلك أمر أن يدخل المظلوم عليه دون استئذان ، فكتب الى الأمصار : « من ظلمه امامه مظلمة ، فلا اذن على » .

انه لا يغلق بابه فى وجه مظلوم ، بل انه يشجع المظلومين على أن يأتوا اليه ليرفع عنهم حيف ولاته . وانه ليعلم أن المظلوم الذى يأتى اليه من أطراف الأرض يتحمل نفقة ومشقة . لذلك كتب الى الأمصار أنه يجزى من يقدم عليه فى مظلمة يردها : « فأيما رجل قدم علينا فى مظلمة نردها ، أو أمر يحيى الله به حقا أو يميت باطلا ، أو يجىء بخير ، فله منا ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة دينار بقدر ما يتحمله فى ذلك من طول السفر وبعد المشقة .

انه يعظ ولاته ويتقبل الموعظة من الناس جميعا : الكبير والصغير ، الفقيه وعامة المسلمين ، ما دام فى الموعظة ما يحقق رسالته ويزحزحه عن النار . انه لا يفتأ يذكر بلية الحكم والسلطان ، لذلك كان رسله

يخرجون من عنده بالكتب الى الولاة ليشحذ فيهم الاحساس الدينى الذى يقوم نفوسهم الأمارة بالسوء :

« أما بعد فان من ابتلى من أمر السلطان بشىء فقد ابتلى ببلية عظيمة ، فنسأل الله عافيته وعونه · وانى أدعوك أن تقف نفسك فى سرك وعلانيتك عند الذى ترجو به النجاة من ربك ·

تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه قبل أن يتولى صلاحه غيرك ، ولا يمنعك من ذلك قول الناس ، وكن ان ولاك الله أمرهم ناصحا فى دينهم وأعراضهم ، واستر كل عوراتهم ، واملك زمام نفسك تجاههم اذا هويت واذا غضبت » ·

انه يشفق على نفسه وعلى عماله من الحكم والسلطان ؛ فالولاية على الناس ندامة يوم القيامة ، فكان كلما دخل عليه رجاء بن حيوة ، يعاتبه ، فلولاه لما حمل ذلك العبء الثقيل ، عبء مخاصمة رعاياه اياه يوم الفزع الأكبر · وانه كلما خلا الى نفسه يشرد ويتذكر أول أيام عهده بالخلافة · ان عبد العزيز بن الوليد لم يعلم ببيعة الناس لعمر وعهد سليمان الى عمر ، فعقد لواء ودعا الى نفسه فبلغته بيعة الناس عمر بعهد سليمان ، فأقبل حتى دخل عليه ·

ان الحوار الذى دار بينه وبين عبد العزيز بن الوليد ليتمثل له كلما فكر فى أمره ، انه قال لعبد العزيز :

ــ قد بلغنى أنك بايعت من قبلك وأردت دخول دمشق ·

ــ قد كان ذلك ، وذلك أنه بلغنى أن الخليفة سليمان

لم يكن عقد لأحد ، فخفت على الأموال أن تنهب ·
ـ لو بايعت وقمت بالأمر ما نازعتك ذلك ، ولقعدت في بيتي ·
ـ ما أحب أنه ولي هذا الأمر غيرك ·

وتمنى صادقا لو أن عبد العزيز بن الوليد قد قام بالأمر وأراحه من ذلك الذي يؤرقه ، خوفه السرمد من الحساب يوم الحساب ·

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة · انه كان على علم بما قاسى أهل العراق من ظلم الحجاج وجور عماله ، فرأى أن يذيقهم حلاوة العدل الذي أمر به الاسلام ، فكتب الى عبد الحميد : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عبد الحميد · سلام عليك · أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء · وأن قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكونن شيء أهم اليك من نفسك فانه لا قليل من الاثم ، ولا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب · انظر الخراب فخذ منه ما أطلق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض · ولا تأخذن في الخراج الا وزن سبعة ليس لها آيين ولا أجور الضرابين ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح · ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض · فاتبع في ذلك أمري فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله ، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب

حتى تراجعنى فيه ، وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج بها والسلام » .

ولم يستتب الأمر فى العـــراق فقـــد خرج على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بسطام من بنى يشكر فى فرسان من ربيعة ، فكتب عبد الحميد الى أمير المؤمنين يخبره بخروج بسطام والذين معه عليه ، فكتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد : ألا تحركهم الا أن يسفكوا دما أو يفسدوا فى الأرض ، فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلا صليبا حازما فوجهه اليهم ووجه معه جندا وأوصه بما أمرتك به .

كان عمر بن عبد العزيز يؤثر الســلامة ولا يحب ســـفك الدماء . وانه لا يزال يذكر تلك الرؤيا التى رآها قبل أن يصبح خليفة : انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بشره بالخلافة ونهـــاه عن سفك الدماء . فهو منذ تلك الليلة المباركة يمقت سفك الدماء ويؤثر السلامة .

وعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلى فى ألفين من أهل الكوفة ، وأوصـــاه بوصـــية أمير المؤمنين وأرسله الى بسطام ورجاله . وقدم محمد بن جرير على الخوارج فقام بازاء بسطام لا يحركه ولا يهيجه ، ورأى عمـــر بن عبد العزيز أن يحســم تلك الخلاف ليحقــن الدماء فبعث الى بسطام يســأله عن سبب خروجه على السلطان ، فقال بسطام :

ــ خرجت غضبا لله ونبيه .

وبلغ عمر مقالة بسطام فكتب اليـــه : « بلغنى أنك

خرجت غضبا لله ولنبيه ولست بأولى بذلك منى • فهلم أناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان فى يدك نظرنا فى أمرنا •

وتسلم بسطام الكتاب وما ان قرأه حتى اقتنع بما فيه • انه كلام رجل عاقل رشيد لا يبغى الا الحق وحقن الدماء • فثبت بسطام فى مكانه لا يحرك ساكنا وكتب الى عمر : « قد أنصفت ، وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » •

أحس عمر بن عبد العزيز راحة • وانتظر الرسولين ليستبين وجه الحق وليقف الى جانبه •

- ٢٤ -

مطاعم الفقراء منتشرة فى طول الدولة الاسلامية وعرضها لا يصيب من طعامها الا من طبخ له ، والسخرة أبطلت فلا عمل بلا أجر ، والمرضى وذوو العاهات يأخذون ما يكفيهم من بيت مال المسلمين ، والفلاحون يأخذون من بيت المال عشرات الألوف من الدنانير ، وزادت أعطيات الناس ولم يبق فى الدولة الاسلامية من يعيش عيشة الكفاف الا أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه ٠

قال يحيى بن سعد :

ـ بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيهم اياها فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم ٠

كان راضيا بعيشة الكفاف التى يحياها ، فكان يقول :

ـ ما تركت شيئا من الدنيا الا عوضنى الله ما هو خير منه ٠

فانعكس رضـــاه على رعاياه ، فالامام قــدوة ان صلح صلحوا وان فسد فسدوا · وكان عمــر صالحا فكثر الصـــالحون فى عصره وما مكث فيهم أكثر من سنتين وبضعة أشهر ، ولكنهـــا أيام مترعة بالعمـــل الصالح والرأى السديد · انه منذ أول يوم صارت اليه فيه الخلافة وضع منهاجه كتاب الله وسنة رسوله : لقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده سننا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة لدين الله · ليس له تبديلها وتغييرها ولا الركون لأمر خالفها · من اهتدى بها فهو المهتدى ، ومن استنصر بهـــا فهو المنصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا ·

« أيها الناس انه ليس بعد نبيكم نبى وليس بعـــد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال الى يوم القيـــامة ، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام الى يوم القيامة » ·

انه يدعو النـــاس الى الشريعة السمحة ، الى دين الفطرة ، لا شيعة ولا خوارج ولا مرجئة ، بل كتاب الله وسنة رسوله وما سار عليه خلفاؤه الراشـــدون من بعده ·

ان جذوة الايمان فى الصدور لا تخبو ، فان سكنت تحت رماد فساد العصر والحكام فما أسرع أن تتوهج اذا ما نفخ فيها حاكم صالح · ولقد كانت نفخات عمر ابن عبـــد العزيز قوية طاهرة فاستجاب لهـــا الناس فأضاءت أنوار اليقين القلوب ، فسعد الحاكم وســـعد

رعاياه ، وكانت المدينة الفاضلة التى داعبت عقول الفلاسفة حقيقة واقعة فى دنيا الناس ٠

انه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويطلب من الناس أن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر ٠ انه يمقت الرياء ويكره أن ينهى عن خلق ويأتى مثله ؛ فالنفاق باب من أبواب جهنم وهو يغلق بأعماله الحميدة أبوابها بابا وراء باب ليكون أهلا لما وعد الله به المتقين ٠ وانه ليقول فى ايمان :

ـ لو أن كل امرىء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يلزم بذلك نفسه ، لما كان هناك أمر بالمعروف ولا نهى عن المنكر ، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة ٠

كان الموت والآخرة يستوليان على كل تفكيره ويتحكمان فى كل تصرفاته ، فاذا ما حاولت الدنيا أن تغره وأن تتلون له لتفتنه كان يخرج الى القبور ليكون له فى ساكنيها عبرة ٠ انه خرج ذات يوم هو وصديقه ميمون بن مهران وغلامه الى قبور آبائه وألقى نظرة على المكان الموحش ، ثم قال لصديقه :

ـ يا أبا أيوب ! هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم ٠

وراح يفكر فى ذلك اليوم الذى سيرقد فيه الى جوارهم فاذا به يضطرب ويترقرق الدمع فى عينيه ٠ انه كسائر البشر ٠ انه ميت وانهم ميتون ٠ ويا ليته كان كأحدهم فهو أثقلهم حملا ، سيسأله ربه عن أمته التى ولى أمرها ٠ يا ليته لم يل من أمر المسلمين شيئا ٠

التفت الى صديقه وغلامه وقال :

ـ انطلقا بنا فوالله لا أعلم أحدا أنعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله .

وتقاصرت نفسه فراح يسأل ذاته : من هو حتى يدعو الناس له فوق المنابر ! ان فى الدعاء له استغلالا لمكانته التى أنعم الله عليه بها ، وهو يرتجف فرقا من مجرد فكرة أن ينال منفعة ذاتية من خلافته ، فراح يكتب الى ولاته فى الأمصار : مروهم فليصلوا على النبى عليه الصلاة والسلام وليكن فيه اطناب دعائهم وصلاتهم ، ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات وليستنصروا الله وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين ، وليدعوا ما دون ذلك .

ومنع الخليفة الزاهد سب الامام على بن أبى طالب الذى أصبح يؤمن أنه كان أزهد الناس وأتقاهم ، والدعاء له فوق المنابر فما ينفع المرء الا عمله ؛ وانه ليجتهد أن يكون عمله صالحا ابتغاء مرضاة الله .

وكان عمر بن عبد العزيز فى انتظار وفد بسطام ليناظرهم ويناظروه ، فان كان الحق معه دخل الخوارج فيما دخل فيه الناس ، وان كان الحق معهم نظر فى أمرهم . وقبل أن يصل اليه وفد خوارج الكوفة اذ بخوارج آخرين يخرجون فى الموصل يجاهرون بآرائهم المعادية للخليفة ، فأرسل اليه عامله على الموصل بأنبائهم فلم يأمر بقتالهم فما كان يحب سفك الدماء ، بل كتب الى عامله : « اذا رأوا أن يسيحوا فى البلاد فى غير أذى لأهل الذمة وفى غير أذى للأمة فليذهبوا

حيث شاءوا ، وان نالوا أحدا من المسلمين أو من أهل الذمة بسوء فحاكمهم الى الله » ٠

وكان بنو العباس يرقبون بنى أمية ويرصدون ظلمهم وظلم ولاتهم ، فكانوا يرون أن ذلك الجور سيطيح بالأمويين ٠ لقد بان على دولة بنى أمية مخايل الوهن والضعف ، وان حكم عمر بن عبد العزيز العادل ان هو الا حلم جميل ما يلبث أن ينقضى ويعود حكام بنى أمية الى سيرتهم الأولى : البطش والجور وأكل حقوق الناس بالباطل واستغلال المحكومين لمصلحة البيت الأموى ٠

ان عمر بن عبد العزيز يبغض اراقة الدماء وانه ليناظر الخارجين عليه ليستبين وجه العدل ، وان مثل ذلك الحاكم الزاهد فى الحكم لن يثور ثورة عارمة لو قبض على أحد يدعو الى غيره ٠ فأرسل محمد بن على بن عبد الله بن عباس رسولا الى العراق ، وبعث برسل الى خراسان ، وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته ، فلقوا الناس سرا وراحوا يطعنون فى دولة بنى أمية ويدعون الى العباسيين ، فاستجاب لهم نفر وكتبوا تأييدا لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فلما وصلت الكتب الى محمد بن على فرح بها واستبشر ، وسره أن ذلك أول مبادىء أمر قد كتب الله اتمامه ، وأول رأى قد أحكم الله ابرامه ٠

وكان لنجاح الخطوة الأولى أثرها فى نفس محمد ابن على بن عبد الله بن عباس ، فاختار له أبو محمد الصادق اثنى عشر نقيبا واختار سبعين رجلا وكتب

اليهم محمد بن على كتابا يكون مثالا وسيرة يقتدون بها ويسيرون بها • وبدأ تالدعوة سرا لبنى العباس فى عهد الخليفة الزاهد فى الحكم والسلطان •

أقنع عمر بن عبد العزيز الناس فى سنتين اثنتين باتباع كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وسنة خلفائه الراشدين من بعده ، وبمحاسبته نفسه ، واقامة العدل بين الناس لا تأخذه فى الله لومة لائم • عرف ببصيرته النفاذة أن فى صلاح الفرد صلاح الأمة وأن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، فراح يوقظ الضمائر النائمة ، ولا يعالج مشاكل المال بعيدا عن الأخلاق بل كان يحاول أن يبنى النفوس الطاهرة فى نفس الوقت الذى يعيد فيه توزيع المال على الناس ، فتمكن فى مدة وجيزة من أن يحقق أحلاما لم تتجاوز عقول الفلاسفة والمفكرين • تمتع اخوانه فى الدولة الاسلامية المترامية الأطراف بحرية راشدة ، فكان لهم أن يعلنوا آراءهم وأن يفصحوا عما فى نفوسهم وأن ينتقدوا ما شاء لهم الانتقاد ، ما دام هدف ذلك النقد اصلاح الحاكم والمحكومين • ولم يتبرم بنقد ولم يضق صدره بتوجيه ممن هم دونه • بل كان يقول لمن يرشده الى الحق : عظنى •• عظنى يا بنى • وتمتع اخوانه فى دولته بعدل ما بعده عدل ، فتح أبواب داره المتواضعة أمام المظلومين ورد اليهم حقوقهم ، بل انه أعطى جائزة لمن يحمل اليه مظلمة ليرد الى صاحب الحق حقه ، ولم يترك ولاته يعيثون فسادا فى الأرض بل كان شديدا عليهم ، ما ان تبدو من أحدهم بادرة

انحراف حتى يسارع فى عزله • وما كان يتردد فى عزل عامل من عمــاله اذا ما كثر شاكوه ، كتب الى أحدهم : قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فاما اعتدلت واما اعتزلت •

انه على الرغم من لينه وتقاه قاطع كالسيف ، لم يمل مع الهوى يوما • فبنو أميــة ثائرون وان ثورتهم تزداد كل يوم ، فقد أفقرهم وأغنى بيت مال المسلمين ؛ ولكنه لا يأبه بتلك الثورة ما دام مع الحق • وان عمته فاطمة بنت مروان التى كانت تدخل على الخلفاء وقتما تشاء لا يرد لها طلب ، قد غضبت منه لأنه أحيا بيت مال المسلمين وأفقر بنى أمية ، ولم يحفل بغضبها ؛ رأى من العدل ألا يعطى بنى أمية دون المسلمين ان أعطاهم درهما أعطى جميع المسلمين درهما ، فذلك يرضى عدله ويريح ضميره المرهف • فان كان عدله يغضب أحدا فليكن غضبه غضب الخيل على اللجم ، فلن يؤثر فيه ولن يجرفه عن قصد السبيل •

انه حاكم عادل لا يهرب من مسئولياته ، ولا ينفـذ أمرا صدر ممن قبله لا يؤمن بعدله وصوابه • كانت خلافاته مع بنى أمية لا تنتهى ، فحججهم لا نهاية لها • جاءه أحدهم يطلب ما ليس له حق فيه فأبى عمــر أن يعطيه ، فأراد الرجل أن يثبت أحقيته فيما يطلب ، فقال لعمر فى انفعال :

ــ سآتيك بصك الوليد •

صك الوليد ؟ ! وما قيمة ورقة أمضاها خليفة ظالم

تعطى أحد بنى أمية ما ليس له حق فيه عند عمر بن عبد العزيز ؟ فقال عمر ساخرا :

ـ أبالمصحف ستجىء ؟

وما كان لاخلاصه حدود ، كان يخلص لله فى سره وعلانيته • انه خرج ذات يوم فى أول عهده بالخلافة الى خالد بن يزيد بن معاوية وكان عنده أبو عنبس ، وكان على عمر مقطعات فأخذ بيد خالد فقال :

ـ هل لينا من عين ؟

قال أبو عنبس :

ـ عليكما من الله عين بصيرة وأذن سميعة •

فترقرقت الدموع فى عينى عمر فأرسل يده من يد خالد وولى •

فقال أبو عنبس لخالد :

ـ من هذا ؟

ـ هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخى أمير المؤمنين ، ولئن طالت بك حياة لترينه امام هدى •

وكان اخلاصه لله فى السر والعلانية مصدر اخلاصه للأمة فى سره وعلانيته ؛ فمـا ان ولى أمر المسلمين وانتهى من دفن سليمان حتى جلس للناس على الأرض يرد المظالم دون أن يؤدى لبدنه حق الراحة ، ثم يكتب الى الأمصار بعزل ولاة الأمويين الظلمـة • ولم يكن ذلك ولعا بالسلطان بل خوفا من أن يوافيه أجله قبل أن يؤدى حق الأمة عليـه • وقد بلغ من ارهاف حسـه الدينى واخلاصه أن كان يترك ما ليس فيه شبهة توقيا

لما فيه شبهة ، فقد كان عطاؤه قبل أن يكون خليفة على المسلمين أربعة آلاف دينار ، فلما صار اليه الأمر اذا به يترك كل ما كان يأخذه من بيت مال المسلمين ويصبح عطاؤه مائة دينار لا يملك غيره ·

كفــل الحرية الشخصية والحرية الدينية فلم يرغم أحدا على اعتناق الاسلام ، فالله يقول : لا اكراه فى الدين • وهو سامع مطيع لما يأمر به رب العالمين • ولم يخرج أحدا من الاسلام وان كتب اليه عماله أن الناس قد كثروا فى الاســلام حتى خاف العمــال أن يقــل الخراج • كان العمــال فى ريب من أمر هؤلاء الذين دخلوا الاسلام فرارا من الجزية ، ولكنه أمر أن يحكم بالظاهر فالسرائر لله وحده علام الغيوب ، فأمر عماله أن يضعوا الجزية عن هؤلاء الذين أعلنــوا على الملأ اسلامهم • فمحمد صلوات الله وســلامه عليــه بعث هاديا ولم يبعث جابيا •

وسوى بين الناس ، فالمســلمون اخوة لا فرق بين غنى وفقير ولا بين حر وعبد ، وقد بدأ بنفسه فما كان يرى نفسه فوق أحد من البشر ؛ انه رجل منهم غير أنه أثقلهم حمــلا • انه فى يوم حار أمر جارية أن تروحه حتى ينام فروحته فنامت هى ، فأخذ المروحة من يدها وجعل يروحها ويقول :

ـ أصابك من الحر ما أصابنى ٠

انه زهد فى الدنيا فما كانت عنده تساوى قلامة ظفر ٠ انه يلبس تحت ثيابه مسحا غليظا من شعر فهو يرى أن الدنيا عدوة أولياء الله وولية أعداء الله : أما أولياء الله فمتعتهم وأحزنتهم ، وأما الأعداء فقرتهم وقربتهم منها ، وشتتتهم وأبعدتهم عن الله وهذا هو الخسران المبين ٠

وعصم من المراء والغضب والطمع والكبر ، قال لرجل :

ـ من سيد قومك ؟

ـ أنا ٠

ـ لو كنت كذلك لم تقله ٠

وكان يكثر سؤال ربه فبارك ربه فى حكمه ، وتوكل على الله فهداه الله سبيله ، وقد كان يقول :

ـ لقد بورك لعبد فى حاجة أكثر فيها سؤال ربه ، أعطى أو منع ٠

انه يصل ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشى ربه ويخاف سوء الحساب فهو يحاسب نفسه على الدوام قبل أن يحاسبه ربه ، ويرتجف فرقا اذا ما ذكر بيوم الدين ٠ « واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ٠ لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » ٠ فبكى بكاء شديدا ، ثم قام ودخل منزله وتفرق الناس عنه ٠

انه يذكر يوم القيامة ولا يفتأ يذكر عماله به ٠ فقد

كتب الى بعضهم : اذكر ليلة تمخض بالساعة فصباحها القيامة ، فيا لها من ليلة ويا له من صباح !

انه رجل يخاف مقام ربه ، دستوره كتاب الله وسنة رسوله · فلا غرو أن حلت مشاكل عصره بين أصابعه ، وأصبحت أيامه القليلة الخطيرة غرة فى تاريخ البشرية ·

سنتان وخمسة أشهر انقضت منذ أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة للمسلمين مرت على الدولة الاسلامية رخاء كالنسيم ، ولكنها كانت على بنى أمية طويلة لكأنها دهور : قطع الجوائز والمرتبات الباهظة عنهم ، ولم يعد يصرف لهم درهما الا أن يصرف مثله لعامة المسلمين · انه أفقرهم وأحيا بيت مال المسلمين ، وراح سخط بنى أمية يزداد مع الأيام ·

وضاق عمر بن الوليد بما هو فيه من ضيق فكتب اليه : « أما بعد فقد أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق فى قرابتك ، وعمدت الى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلما وجورا وعدوانا · فاتق الله يا بن عبد العزيز فانك توشك ألا تطمئن على منبرك » ·

وثار ابن عبد العزيز للحق ، فكتاب عمر بن الوليد باطل وهو يميل مع الهوى فيقلب الحقائق ، فراح عمر بن عبد العزيز يكتب فى انفعال : « من عمر أمير المؤمنين الى ابن الوليد ·· سلام على من اتبع الهدى · أما بعد فعهدى بك أنك كنت جبارا شقيا ،

والأن تكتب الى" تتهمني بالظلم لأنني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين ما هو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل ·

ألا ان شئت أخبرتك بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله ، انه أبوك الوليد الذى حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبيا سفيها تحكم فى دمائهم وأموالهم" · فويل لك وويل لأبيك ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة · وأظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدم الحرام ·

وأظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل يزيد بن أبى مسلم على جميع المغرب يجبى المال الحرام ويسفك الدم الحرام ·

ألا رويدك يا بن الوليد فلو طالت بى حياة لأتفرغن لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجة البيضاء » · وغضب بنو أمية لما قرأوا الكتاب · أينتظرونه حتى يتفرغ لهم ويقيمهم على المحجة البيضاء ؟ وراحوا يتبادلون الرأى ويفكرون فى وسيلة يتخلصون بها من ذلك الخليفة الذى أذل البيت الحاكم وسوى بينهم وبين عامة الناس ·

وراحوا يتذاكرون ما فعله ابن عبد العزيز بهم : انه عزل عمال آبائهم ، عزل أسامة التنوخى عن خراج مصر ولم يكتف بذلك بل راح يحاسبه عن أموال المسلمين ويسأله فيم أنفقها ؟ وعزل يزيد بن أبى مسلمة عن افريقية ودعاه ليقدم حسابه ، انه كشف آباءهم

أمام النـــاس لما حاسب ولاتهم ، وهـــذه اهانة للبيت الأموى لا بد أن يدفع ثمنها ٠

انه كتب أول ما كتب لولاته : « كونوا فى العـــدل والاصلاح والاحسان بقـــدر ما كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان » ٠

انه مذ أول يوم صـــار فيـــه خليفـــة على المسلمين يعرض بآبائهم ويتهمهم بالظلم والفجور وقد استمرأ الطعن عليهم وتجريحهم ، فلا بد أن يدفع الثمن ٠

انه قال لعمته فاطمة بنت مروان : يا عمـــة ، ان عمى عبد الملك وأخى الوليـــد وأخى ســـليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين وليس ذلك المال لى فأعطيكه ٠

ان هذا القول اشتهر بين النـــاس ؛ انه اتهـــام لعبد الملك وسليمان بن عبد الملك ٠ انه تجريح للخلفاء الأمويين ٠ ولم يكتف بذلك بل راح يقول :

ــ انما أنا حجيج المسلمين فى مالهم ٠

جعل من نفسه أمينا على أموال المسلمين ، واتهم من سبقوه بخيـــانة الأمانة ٠ وذلك طعـــن صريح فى البيت الأموى لا بد أن يقدم عنه ابن عبد العزيز حسابا وأن يدفع الثمن ٠

انه ألغى الضرائب التى فرضها خلفاء بنى أميـــة قبـــله ، ولم يكتف بذلك بل وضـــع عن النـــاس زكاة الزروع ٠ فقد كتب اليـــه عامله على اليمن عروة بن محمد أنه وجد على أهل اليمن ضريبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم سواء أخصبت البلاد أم أجدبت ، وطلب من أمير المؤمنين الرأى ، فكتب عمر بن عبـــد العزيز

اليه : « أما بعد فقد كتبت الىّ تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقهم كالجزية ، يؤدونها على كل مال ان أخصبوا أو أجدبوا ، ان حيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين !

اذا أتاك كتابى هـذا فدع ما تنكره من الباطل الى ما تعرفه من الحق ، واعلم أنك ان لم ترفع الىّ من جميع اليمن الا حفنة من كتم ـ نبات يستعمل فى الصباغة ـ فقد علم الله أنى سأكون بها مسرورا مادام فى ذلك ابقاء على الحق والعدل ·

انه لم يكتف بالتشهير على الخلفاء الأمريين فى الشام ، بل راح يعلن سوءاتهم فى الأمصار ؛ فما يفعله ابن عبد العزيز يزعزع أركان ملك بنى أمية ، ولو ترك له الحبل على الغارب فلن يكون بعده خليفة عن الأمويين ، فلا بد من أن يعجل أجله وأن يدفع الثمن ·

ان فاطمة بنت عبد الملك بنت الخليفة وأخت الخليفة التى كانت ترفل فىَ العز أضحت لا تملك الا ثوبين · انه أخذ منها جواهرها وجعلها فى تابوت ووضعه فى أقصى بيت المال ؛ أخذ منها هدية أبيها لها يوم زفافها · انه أهان نساء البيت الأموى ولا بد أن يدفع الثمن ·

وجاء وفد بسطام ليناظر عمر بن عبد العزيز فقد أرسل عمر الى بسطام : « بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولنبيه ولست أولى بذلك منى فهلم أناظرك ، فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان فى يدك نظرنا فى أمرنا » ·

وأرسل عمر الى وفد بسطام أن اختاروا رجلين ، فاختاروا عمر مخروج مولى بنى شيبان ، والآخر من صليبة بنى يشكر ، فدخلا عليه فناظراه فقالا له :

ـ أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك ؟

ـ صيره غيرى .

ـ أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الأمانة الى من ائتمنك ؟

حجة دامغة ، انه قول فصل بل هو الحق ، وعمر بن عبد العزيز يدور مع الحق أينما دار ، فقال :

ـ أنظرانى ثلاثا .

فخرجا من عنده فذاع أمر هـذه المناظرة ، فخاف بنو أميـة أن يستجيب لحجة الوفد ويخـلع يزيد من الخلافة ، فنفد صبرهم ولم يعد هناك مكان للتردد أو التريث ، فأرسلوا الى مولى من مواليه يقدم له طعامه وشرابه وراحوا يغرونه بالمال على أن يدس له السم ليرتاحوا من ذلك الذى يهدد ملك بنى أمية بالزوال .

★ ★ ★

مرض عمر بن عبد العزيز فدخل عليـه أصدقاؤه يعودونه وقال قائل :

ـ أبقاك الله ما كان البقاء خيرا لك .

فقال عمر فى صوت ضعيف :

ـ هذا شىء قد فرغ منه ولكن قل أحياك الله حيـاة طيبة وتوفاك مع الأبرار .

وأقبل عليه أحد خلصائه فقال له :

ـ كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟

ـ أصبحت بطيئا متلوثا بالخطايا ، أتمنى على الله عز وجل .

وشرد مفكرا فتراءى له شبح الحادثة التى تنغص عليه حياته . انه لما كان واليا على المدينة من قبل الوليد أمره الوليد أن يضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير ويوقفه على باب مسجد الرسول عقابا له ، فخبيب كان يطعن فى ولاية الأمويين . وكان يرى كما كان يرى أبوه ن يعود الأمر شورى كما كان أيام الخلفاء الراشدين قبل أن تصبح الخلافة ملكا يتوارثه الأبناء عن الآباء .

وجلد عمر بن عبد العزيز خبيبا خمسين سوطا ، وصب على رأسه قربة ماء فى يوم شات ، وأوقفه على باب المسجد فلبث يومه ثم مات . فهب ضمير عمر يؤنبه وانه مذ اليوم يرتجف فرقا من الله كلما رأى خبيبا وهو يجلد والماء يصب على رأسه .

انه وهو فى مرضه ليذكر ذلك اليوم فيغيض لونه ويرتجف من رأسه الى قدمه ويجهش بالبكاء ، فيقول له من عنده :

ـ فيم بكاؤك وقد وفقك الله لعمل أهل الجنة ؟

فتنهمر دموعه ويقول فى خوف :

ـ وكيف بخبيب ؟ وكيف بخبيب ؟

ويبلغ به تأثره منتهاه فيقول وهو يتأوه :

ـ ان نجوت من خبيب فأنا بخير .

انه يندم على أنه شارك السلطان فى جوره ، وانه ليستغفر الله فى اليـوم ألف مرة ويتمنى من كل قلبه لو أن الله يغفر له هذه الزلة . فلو كان يدرى ما ستخلفه فى نفســه من ندامة لاعتزل ولاية المدينة بكل ما كان فيها من خير ، ولما سلك سلوك الولاة الجبابرة .

- ٢٦ -

بلغ يزيد بن المهلب وهو فى سجنه مرض عمر بن عبد العزيز فاضطرب ، فلو مات عمر فلن يتركه يزيد ابن عبد الملك يمشى فى الأرض ، فيزيد قد أقسم أن يقتله • فرأى ابن المهلب أن يهرب فواعد غلمانه يلقونه بالخيل فى بعض الأماكن ، ثم انسل من محبسه ومعه جماعة وامرأته عاتكة بنت الفرات العامرية • فلما جاء غلمانه ركب رواحله وسار ، ورأى يزيد بن المهلب أن يكتب الى عمر بن عبد العزيز يعتذر اليه عن هربه ، فعمر كان يحسن معاملته على الرغم مما كان بينهما من خلاف • فكتب الى أمير المؤمنين المريض : انى والله ما خرجت من سجنك الا حين بلغنى مرضك ، ولو رجوت حياتك ما خرجت ولكنى خشيت من يزيد بن عبد الملك فانه يتوعدنى بالقتل •

وكان يزيد بن عبد الملك يقول :

ـ لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة •

وذلك أنه لما ولى العراق عاقب أصهار آل عقيل وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان يزيد بن

عبد الملك متزوجا بنت محمد بن يوسف الثقفى وله منها ابنه الوليد بن يزيد •

وجاء الى عمر بن عبد العزيز كتاب يزيد بن المهلب فراح يقرؤه ، ثم قال :

ـ اللهم ان كان يريد بهذه الأمة سوءا فاكفهم شره واردد كيده فى نحره •

كان عمر بخناصرة من دير سمعان بين حماة وحلب، فلما ذاع خبر مرضه هرع اليه أصحابه ، وجاء رجاء ابن حيوة يعود الخليفة العادل فألقاه وهو فى مرضه مشغولا بأمور المسلمين • انه يكتب الى عدى بن عدى: « ان للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، من استكملها استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان • فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وان أمت فما أنا على صحبتكم بحريص •

فأحس رجاء ما سينزل بالمسلمين من رزء اذا قضى عمر بن عبد العزيز • ان الشائعات قد انتشرت فى أرجاء البلاد تقول ان بنى أمية قد دسوا السم للخليفة العادل ، وقد سمع رجاء تلك الشائعات وظل مترددا برهة ، ثم قال لعمر المريض :

ـ انك مسموم •

فقال عمر فى هدوء :

ـ لقد علمت يوم سقيت السم •

ـ تدارك نفسك •

ـ والله لو أن شفائى أن أمس شحمة أذنى أو أوتى بطيب فأشمه ما فعلت •

كان يرجو أن تكون حياته كفارة لما نزل بخبيب بن عبد الملك بن الزبير ·

وراح عمر يوصي رجاء بن حيوة أن يغسله ويكفنه ، وأخذ رجاء ينظر الى الرجل الأسمر النحيل المسجى في اشفاق ، ولم يكن اشفاقه على الرجل الذى لم يبلغ الأربعين بعد وحسب ، بل كان اشفاقه على الأمة التى ذاقت طعم الحق وستفقده من بعده ·

واستدعى عمر بن عبد العزيز مولاه الذى سقاه السم فقال له :

ـ ويحك ما حملك على ما صنعت ؟

ـ ألف دينار أعطيتها ·

ـ هاتها ·

فذهب مولاه وأحضر الدنانير ، فأخذها عمر فوضعها فى بيت المال · ثم قال لمولاه الخائن :

ـ اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك ·

ودخل عليه ابن عمه مسلمة بن عبد الملك ، فرأى الموت فى وجه أمير المؤمنين فقال :

ـ هؤلاء بنوك ألا توصى لهم بشىء فانهم فقراء ·

ـ ان وليى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين · والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين اما صالح فالله يتولى الصالحين ، واما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه ·

وأحس شوقا الى رؤية بنيه فأمر أن يدعوهم فجاءوا · كانوا اثنى عشر ذكرا فنظر اليهم فذرفت عيناه ثم قال :

ـ بنفسي الفتية ٠

وراح يوصى أبناءه ويودعهم :

ـ يا بنى ان أباكم خــير بين أمرين : أن تستغنوا ويدخل أباكم النار أو تفتقروا ويدخل الجنة ، فاختــار الجنة وآثر أن يترككم لله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ٠

انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم ٠

ودنا رجل من الخليفة وقال له :

ـ يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينــة ، فان قضى الله موتا دفنت فى القبر الرابع مع رســول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ٠

فقال عمر فى صدق :

ـ والله لأن يعذبنى الله بكل عــذاب الا النــار فانه لا صبر لى عليها ، أحب الى من أن يعلم الله من قلبى أنى لذلك الموضع أهل ٠

وراحت فاطمة زوجته تســح الدموع فى صمت ، فزوجها الحبيب يجود بأنفاسه الطاهرة ٠ انه مسبل العينين يتمتم بالدعاء ، وجاء صوته واهيا يقول :

ـ أجلسونى ٠

فخفوا اليه وأجلسوه فقال :

ـ الهى انا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، الهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ٠٠ الهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصــيت ، ولكن لا اله الا الله ٠

وأطرق رجاء بن حيوة ولاح الأسى فى وجهه ، واذا

بصوت عمر بن عبد العزيز يسرى فى المكان كأنه آت من مكان سحيق يقول :

ـ اللهم رضنى بقضائك وبارك لى فى قدرك ، حتى لا أحب لما عجلت تأخيرا ، ولا لما أخرت تعجيلا ·

واغرورقت عينا رجاء بالدموع ·

وأحس عمر بن عبد العزيز بما حوله ·· الدموع فى الأعين والزفرات تخــرج من الصــدور محمومة محملة بالأسى واللوعة ، فقال لأهله :

ـ اخرجوا عنى ·

فخرجوا وجلس على الباب مســلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة فسمعوه يقرأ :

ـ « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ·

وهدأ الصوت وساد المكان سكون مريب ، فدخلت فاطمة عليه فندت منها صرخة مدوية مفجوعة ، فخف اليها أخوها مسلمة ومن فى الدار فوجدوه قد مات ·

وارتج البيت بالبكاء والعويل ، ونعى النعاة أمير المؤمنين فاعتصر الخوف القلوب وسالت العبرات على الخدود وانطلقت الزفرات من الصــدور · فيا لهف نفوس الناس عليك يا عمر ! كنت والله عادلا وما كان لزهدك حدود ، أتتك الدنيا فاغرة فاها فأعرضت عنها ، وأتتك الخلافة بأوزارها فطهرتها وأعدت لها كرامتها · أديت الدين عن المدينين ، وأغنيت الفقراء والمساكين ، وحاسبت نفسك قبل أن يحاســبك أسرع الحاسبين ، فسلام الله عليك يا عمر ، يا خامس الخلفاء الراشدين ·

★ ★ ★

• لم يشف موت عمر بن عبد العزيز مرض قلب عمر ابن الوليد ، وزاد فى حنقه عليه أن فى كل دار من دور المسلمين مأتما على الخليفة العادل الذى انقضت أيامه كما ينقضى الحلم الجميل ، وراح الحسد ينهش قلب ابن الوليد ويأكل صدره ، فأراد أن يمحو محبة ابن عبد العزيز من أفئدة المؤمنين .

وراحت تراوده فكرة الطعن فى الرجل الذى سدد الى نحور الأمويين أقسى سهام سددت الى بيت حاكم ، ومما يزيد فى ضيقه أن ابن عبد العزيز كان من نفس البيت الذى كان يقوض أركانه .

لم يستطع ابن الوليد أن يفهم شخصية عمر بن عبد العزيز ، فما كان يستطيع أن يتصور أن رجلا يمكن أن يرهف حسه الدينى لدرجة أن يضم أملاكه وأملاك زوجه وجواهرها النادرة الى بيت مال المسلمين ، وأن يزهد فى الدنيا التى أقبلت عليه وقد بسطت له ذراعيها .

لا بد وأن يكون لابن عبد العزيز حياة أخرى غير تلك التى كان يبدو فيها بين الناس ، لا بد انه كان يتمتع بحياته بعيدا عن أعين الرقباء ، وأنه لا بد أن يكشف الغطاء عن هذه الحقيقة ، حقيقة الحياة الخاصة لأمير المؤمنين الذى اشتهر بين الناس بالتقى والعدل والورع والزهد والتقشف واعراضه عن زخرف الحياة الدنيا .

وركب عمر بن الوليد الى حيث كان يزيد أمير المؤمنين .. انه هناك فى القصر الأخضر قصر الخلافة .

وسار عمر بن الوليد بين الحرس فأثلج صدره ما يرى من أبهة ملك الأمويين • ودخل على أمير المؤمنين فلم يجده جالسا على الأرض فى ثياب خشنة ، ولكنه وجده يرفل فى الطيلسان وقد اعتلى عرشا يبهر النفوس ، ودنا ابن الوليد من الخليفة وقال فى انفعال :

ـ يا أمير المؤمنين ان هذا الخليفة قد خان المسلمين ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين فى بيتين فى داره مملوءتين ، وهما مقفلان على ذلك الدر والجوهر •

وسال لعاب يزيد بن عبد الملك للكنز المخبوء فأرسل الى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر :

ـ بلغنى أن عمر خلف جوهرا ودرا فى بيتين مقفلين •

فأرسلت اليه :

ـ يا أخى ما ترك عمر من سبد ولا لبد الا ما فى هذا المنديل •

وأرسلت اليه به فحله فوجد فيه قميصا غليظا مرقوعا ورداء خشنا وجبة محشوة غليظة واهية البطانة • فاربد وجه عمر بن الوليد وهز رأسه نفيا كأنما يقول : لا أسأل عن هذا بل عما فى البيتين من در وجوهر • فقال يزيد للرسول : قل لها ليس عن هذا أسأل ولا هذا أريد ، وانما أسأل عما فى البيتين •

فأرسلت تقول له :

ـ والذى فجعنى يا أمير المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ ولى الخلافة لعلمى بكراهيته لذلك ، وهذه مفاتيحهما فتعال فحول ما فيهما لبيت مالك •

فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد متهلل الأسارير ٠ ان هى الا لحظات حتى يذاع أمر الكنز فى طول البلاد وعرضها فتنتهى أسطورة عمر بن عبد العزيز ٠

وبلغ ركب الخليفـــة الدار المتواضـــعة التى كان يقطنها خامس الخلفاء الراشـــدين ، فســـار الحارس بحربته بين يدى أمير المؤمنين ، وخف الناس الى المكان ينظرون ، وسار عمر بن الوليد شامخا بأنفه كأنما كان مقدما على معركة ضمن فيها النصر سلفا ، وهو ينظر الى النـــاس الذين خدعوا فى ابن عبد العزيز فى تحد كأنما يقول لهم عما قليل سيتبدد وهمكم الكبير ٠

وفتح أحد البيتين ، وتقدم أمير المؤمنين وعمر بن الوليد والذين معهما ليكونوا شهودا عيانا على خيانة الخليفة الزاهد ، واذا هم يتسمرون فى مكانهم ، فلم يكن فى البيت الا كرسى من أدم وأربع أجرات مبسوطات عند الكرسى ٠

واتجهت الأعين المتسائلة الى عمر بن الوليد فقال وهو يحاول أن يفر من النظرات المصوبة اليه :

ـ أستغفر الله ٠

وبدا القلق يزحف الى صدر عمر بن الوليد ، فماذا يكون حاله لو أن البيت الآخر كان مثـــل البيت الأول تقشفا وزهدا ٠

وفتح البيت الثانى ، وتقدم يزيد بن عبد الملك ونظر فلم يجد فى المكان الا مسجدا مفروشـــا بالحصير ، وسلسلة معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق بقـــدر ما يدخل الانسان رأسه فيها الى أن تبلغ العنق ٠

ووقف الخليفة والذين معه أمام هذه الحلقة طويلا ·
ان الخليفة الذى يخشى ربه كان اذا فتر عن العبادة أو نكر بعض ذنوبه وضعها فى رقبته ، وربما وضعها اذا نعس لئلا ينام ·

وراحوا ينقبون فى البيت فلم يجـدوا الا صندوقا مقفلا ، ففتح وقلب عمر بن الوليد يرفرف كجنـاح حمامة بين جنبيه وقد اتسعت عيناه ، فهذا الصندوق هو أمله الأخير ، وتمنى من كل قلبه أن يكون مملوءا درا وجواهر ، ولكن لم يكن فيـه الا ثوب من مسوح غليظ · فلم يتمالك يزيد بن عبد الملك الا أن يبكى تأثرا ، وسالت دموع الذين دخلوا ليكونوا شهداء على خيانة عمر بن عبد العزيز ، وصوبت الى عمـر بن الوليـد نظرات أقسى من السهام ، فقـال وهو مطـرق الى الأرض :

ـ أستغفر الله أنا قلت ما قيل لى ·

فقال أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك فى تأثر :

ـ يرحمـك الله يا أخى ان كنت لنقى السريرة نقى العلانية ·

★ ★ ★

وجاءت فاطمة بنت عبد الملك الى أخيها يزيد فلما نظر اليها ألفاها عطلا من كل زينة ، فزوجها عمـر بن عبد العـزيز جعـل جواهرها فى تابوت ووضعه فى أقصى بيت المال · فقال لها يزيد :

ـ ان أحببت أن نعيد اليك جواهرك فعلنا ·

فقالت فاطمة فىَ أسى على زوجها :

ـ رحمك الله يا عمـــر . ما كنت أدعها فى حيــاته وآخذها بعد مماته ، لا حاجة لى فيها .

صهر عمر زوجه فى بوتقة الطهر فخلصها من أدران المظاهر والمادية . انها وهى طاهرة النفس أعظم منها وهى ترفل فى أفخر الثياب وتتزين بكل جواهر الدنيا .. علمها أن الزينة الحقة مكارم الأخلاق ، وأن الحياة السعيدة لا تتأتى الا بالزهد فى الدنيا .

وقامت فاطمة بنت عبــد الملك بنت الخليفة وأخت الخلفاء وزوجة الخليفة ، وهى ترتدى أحــد الثوبين اللذين لم تعد تملك غيرهما ، ولكن كان يبدو عليها أنها تملك الدنيا بأسرها ، فهمس هامس فى نفس يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين :

ـ يرحمـــك الله يا أخى .. ان كنت لنقى السريرة نقى العلانية .

★ ★ ★

وكان عمر قد بعث وفدا الى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه اليه ، فلما دخلوا اذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه والتاج على رأسه والبطارقة عن يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه ، فأدى اليه ما قصــدوا له متلقاهم بجميل وأجابهم بأحســن الجواب وانصرفوا عنه فى ذلك اليوم .

فلما كان فى غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه ، فاذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه وقد

تغيرت صفاته التى شاهدوه عليهـا كأنه فى مصيبة فقال :

ـ هل تدرون لماذا دعوتكم ؟

ـ لا ٠

ـ ان صـاحب مصلحتى التى تلى العرب جاءنى كتابه فى هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات ٠

فما ملكوا أنفسهم أن بكوا ، ففال :

ـ لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم فانه خرج الى خـير مما خلف ، فد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة ٠ لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى ٠ ولقـد كانت تأتينى أخباره باطنا وظاهرا فلا أجد أمره مع ربه الا واحدا ، بل باطنه أشـد حـين خلوته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيـا وعبـد ربه على رأس صومعته ولكنى عجبت من هذا الذى صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثـل الراهب ٠ ان أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر الا قليلا ٠

للمؤلف

الطبعة الاولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
ابناء ابى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
اميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الابطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

رقم الايداع ١٤٢٧

الترقيم الدولى ٩ ـــ ١٤٣ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٥٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه